رحلة نحو النور

محمد الخضر الريسوني

محمد الخضر الريسوني

رحلة نحو النور

الاهـداء :

إلى رفقائي وأحبتي الـذين يواصلون رحلتهم الطويلة بحثاً عن النور، من خلال الحرف والكلمة ، أهدي هـذه القصـة .

المؤلف

تقــديم

كلمات مشجعة ، وعبارات رقيقـة معبرة سمعتها من أستاذي الأديب العالم المرحوم « التهامي الوزاني » بعد أن قـرأ لي مجموعتي القصصية « أفراح ودموع » الصادرة سنة 1951 ، قال لي ووجهه يتألق :

ـ أسلوبك في الكتابة يتميـز بالبساطة والنعومة وأبطال قصصك أشخاص عاديون جداً و« الحلاق العجوز » ذلك الانسان الطيب الذي وصفته فى إحدى قصصك يوجد دكـانه فى « زنقة المقدم » بتطوان ، وأكاد أراه وألتقي بـه يومياً وتلك هي صورته التي تطابق الأصل تماماً .

ووالدي رحمة الله عليه كان يشجعني ، فيهتم بما أكتبه ويحرص على قـراءة أوراقي ويومياتي ، وحتى الرسائل التي كنت أبعثها لـه من الرباط أو من أي مكان آخر، كان يريدها طويلة، وغير مختصرة، ويشترط علي أن أهتم بالتفاصيل والحاجات الصغيرة التي قـد أصادفها ، وأذكر أنني ذات مرة وأنا أقرأ عليه صفحات من قصة حياة «حميد المشيشي» شعرت بالخجل يتملكني عنـد ما أخـذت في وصف حيـاة المراهقة والشباب ،

وبداية تجربة «حميد» الاولى مع أول امرأة التقى بها وهو طالب في قرية «الصخرة» «ببني جرفط» لاحظ الوالد آنذاك ارتباكي واضطرابي ، فما كان منه إلا أن بادرني معنفاً :

ـ لا تقفز على السطور . . إقرأ علي القصة بأمانة .

وحميد نفسه رجاني ونحن معاً في جلسة شاعرية هادئة ببيت والده في العرائش أن أنقل سيرته إلى الناس بكل صدق، وأثناء جلستنا كان يحملق في صورة كبيرة تتصدر حائط الغرفة . وقال في لحظة تأمل عميق : انظر وتمعن في ابتسامة أمي ووالدي رحمهما الله وهما في ثياب العرس . . أنظر إلى سعادتهما الحقيقية أين نحن اليوم من ذلك الوفاء والود المتبادلين ؟.

وعندما قلت لحميد : لماذا لا تكتب أنت قصتك ؟ ألست تهوى الكتابة مثلي وتعشقها ؟ أجابني : إنك صديقي وأخي . . فيك أرى نفسي ، ولأن تكتب أنت عني وعلى لساني أحسن وأفضل ، إنك المرآة التي ستنعكس عليها صورتي أمام الذين يقرأون قصة حياتي . المهم بالنسبة لي أن تكون الصورة بارزة واضحة ، تكون هي أنت وأنا في وقت واحد .

محمد الخضر الريسوني

بسم الله الرحمن الرحيم

على سفح جبل يطل على مجموعة متناثرة من قرى «بني جرفط» (1) ترقد قرية «الصخرة» وقد أطلق عليها هذا الاسم لموقعها الجبلي، ولكونها تستند على أعمدة هائلة من الصخور .

لم أكن أعرف شيئا عنها قبل أن أحل بها كطالب قدم من مدينة العرائش بقصد دراسة. (ألفية بن مالك) و (الشيخ خليل) شأني في ذلك شأن عشرات الطلاب الآخرين الوافدين عليها من جهات نائية .

ولقد استهوتني مناظرها الجميلة وأنا اتأمل واديها السحيق الذي تندفع في أعماقه مياه رقراقة صافية بينما أكواخها ودورها الصغيرة تبدو معلقة في حجر الجبل كأعشاش الطير . . . وتستقر هنا وهناك بشكل غير منظم بعضها مسقف (بالزنك) بينما البعض الآخر مغطى بالتبن . . .

---

1) قبيلة في الشمال تبعد عن العرائش بثلاثين كيلومترا تقريبا .

وفي إمكان اي زائر للقرية من أول وهلة أن يلاحظ بسهولة الفوارق الاجتماعية بين السكان، فمن شكل البيت وسقفه يمكنك ان تدرك هل ما اذا كان صاحبه يملك (زوجة) ثيران للحرث أم لا ؟

كان جامعها الكبير يضفي عليها جوا من القداسة والاحترام وقد أحاطت به أشجار ضخمة من الصفصاف والزيتون البري وعندما تدخل الى فناء الجامع تشاهد حجرات متلاصقة صغيرة خاصة بسكنى الطلبة .

كانت حجرتي تقوم في زاوية الفناء تطل نافذتها التي كانت أشبه بكوة محفورة في الحائط على غابة مكسوة بأشجار البلوط وذلك عند الجهة اليسرى من الجامع .

كان فراشي عبارة عن لحاف من الصوف وسرير من الخشب اما الادوات اللازمة لحياة طالب يعيش بعيدا عن أهله وأسرته فكانت تشتمل على مصباح زيتي وصينية صغيرة صفراء من النحاس وإبريق أزرق وبعض الاواني والكؤوس الزجاجية.

ولن أحدثكم عن الجلابة الصوفية البيضاء التي أهداها لي والدي تشجيعا منه لمواصلة دراستي واستيعاب كتب الفقه و(علم الفرائض) ذلك لان هناك أشياء أخرى يجب أن تحظى بالاسبقية . . . فهذه الحشرات الصغيرة الدقيقة التي تتسرب الى البيت من خلال النافذة او من الشقوق تتحرك في صفوف

متناسقة وكأنها فرق عسكرية في طريقها الى الهدف . . . والهدف هنا تلك الاواني التي لا تزال رائحة الزيت البلدي عالقة بها.

إنه نوع عجيب من النمل يهجم بضراوة على قطع الخبز وعلبة السكر . . ولقد حاولت يوما ان أبعثر صفوفه فعمدت الى صب الماء الغليان عليه لكن بدون جدوى . . . اذ سرعان ما تنتظم صفوفه ليعاود زحفه الكبير .

كنا آنئذ في أواخر سنة 1937 والناس يتحدثون سواء تحت شجرة (التشت) الفارعة الظلال أو فوق (الكلسة) المشرفة على الوادي عن الحرب الدائرة رحاها في اسبانيا بين انصار «الكاوديو» والجمهوريين الذين كانوا يعرفون آنذاك بـ (الروخوس) او الحمر

كنت استمع الى السيد بوشتى (الجرفطي) الذي عاد في إجازة من ميادين القتال وهو يتهم (الروخوس) بأشنع الاتهامات فقال عنهم بأنهم جماعة من الملاحدة لا دين لهم يضمرون عداء للاسلام والمسلمين . . . ولاحظت أن السي بوشتى كان يبدو مزهواً بالوسام الاخضر المعلق على صدره تقديرا له وتنويها بشجاعته . . كان لا يفتأ يتحدث عن المال والاشياء الثمينة التي كان يحصل عليها الجنود المغاربة كغنائم حرب. كان هناك عائدون آخرون يتحدثون بمثل ما يتحدث به بوشتى وشاهدت في المعصم الايمن بيد أحدهم ساعة يد ذهبية قيل انه انتزعها من يد ضحيته .

فالواقع أن الدعاية كانت قوية وشائعة بحيث أن كثيرين من الشبان أقبلوا على التطوع في الجيش زرافات ووحدانا . . . ولان منظر الاوسمة التي تزين صدور العائدين كانت تبعث فيهم حماسا قويا للذهاب الى الحرب والفوز بالغنائم. لم تكن عندي أية فكرة حقيقية عن الحرب الضروس واهوالها التي كنت أسمع عنها . . وكل ما أذكره أنه من خلال أحاديث السيد بوشتى جعلت ارسم صورة باهتة عن قوتين تتصارعان في اسبانيا . . لكن ما هي أسباب الصراع؟ ولماذا ؟ كل ذلك لا أدرك له جوابا . . ؟ ومع أن السي بوشتى كان يتحدث بتفصيل عن شجاعة الجنود المغاربة وانتصاراهم، وكيف أنهم يهتفون بكلمة «الله أكبر» أثناء كل هجوم على مواقع العدو إلا أنني مع ذلك كنت أتساءل : ما هي الاهداف البعيدة للحرب . . . ؟ ومن سيجني زهرة الانتصار في النهاية، المغاربة أم الاسبان . . . ؟

وأحياناً كنت أخلو الى نفسي لأفكر في الاسباب التي دعت شعبا واحداً ينشطر الى قسمين فيقتتل أبناؤه ويذبح بعضهم البعض، أيكون ذلك نزاعا من أجل السلطة والاستئثار بالحكم. .؟ ذلك ما كنت أحاول معرفته واستنكاه أسراره، لكن كيف لي أن أعرف السياسة ومشاكلها وانا طالب شغل نفسه وتفكيرة بكلام الفقهاء وآراء علماء النحو ونظرياتهم في المرفوع والمنصوب .

كان عشيري عبد السلام يتلقى أحيانا من بعض أصدقائه مجموعة من الجرائد الصادرة بتطوان، فنقرؤها معاً، ونحاول أخذ

فكرة عن المهرجانات والاجتماعات التي تنظمها الاحزاب الوطنية فتحضرها جماهير غفيرة، واقترح علي يوما أن نسافر الى القصر الكبير لحضور مهرجان ضخم، بيد أنني قلت استفسره :

ـ وأية فائدة من وراء حضورنا . . . ؟

أجابني وهو يضغط على أصابع يدي :

ـ الفائدة أن نعرف . . .

وحضرت المهرجان برفقة زميلي عبد السلام وقد اقيم في ساحة فسيحة وسط مدينة القصر الكبير . . . كان يضم خليطا من الناس اقبلوا من العرائش ومن أصيلا ومن القرى المجاورة وشاهدت أحد الخطباء وكان شابا أنيقا حليق الذقن يقف وراء منصة عالية يشرف منها على الجمهور المحتشد . . وسمعته يتحدث عن التضحية الوطنية . . ثم سرعان ما اخذ يردد هتافات بحياة الزعماء فتجاوبت معه آلاف الاصوات هاتفة : عاش . . . عاش.

وعندما كان الخطيب في اوج حماسه يدعو الجماهير الى الثبات في معركة مقبلة ضد الاستعمار كنت أتامل شيخا مسنا كان يقف على مقربة مني وقد توكأ على عصى. كانت عيناه غائرتين بينما خطوط منعرجة كثيرة امتدت على جبينه وصدغه، وان العظام البارزة من وجهه الازرق وعنقه المعروقة لتنبئك بأن الرجل مريض بالسل .

وعلى يمينه كانت تقف سيدة انشحت بازار أحاله الوسخ التي قطعة سوداء كان طفلها المتشبث بظهرها لا يفتأ عن الصياح والصراخ بينما يمسك بأذيالها ثلاث أطفال آخرين..

والتفت الى صديقي وقلت استعجله :

ـ هيا بنا يا أخي

لكن عبد السلام قال لي وهو يصفق بيديه متحمساً :

ـ انتظر حتى تتم الخطبة . . .

ثم عزفت الاجواق الموسيقية وانطلقت الزغاريد والاناشيد الحماسية ورأيت الرجل العجوز يرفع أكفه الى السماء وهو يهتف بصوت مبحوح :

ـ الجهاد . . . الجهاد . . . الله أكبر . . .

وسمعت منادياً يصيح بأعلى صوته :

ـ «أعباد الله اللي بغى يسافر لتطوان موجودين السيارات اللي ياخذوه بلا فلوس او كلشي خالص»

وبالفعل شاهدت عشرات السيارات تقف قريبا من الساحة استعداداً لنقل كل من يرغب في السفر الى مدينة تطوان حيث تقام بها مهرجانات صاخبة أخرى .

ولم أدرك ما وراء هذه الضجة القائمة بل إنني لم أفهم لماذا تعمد سلطات الاحتلال الى تشجيع القائمين بتنظيم التجمعات والمهرجانات .

كنت أتساءل وأنا بجوار رفيقي: ترى لم هذا كله؟ وغاب عن ذهني أن الشعب كان يدفع الثمن بدمه وروحه في حرب هي أولا وأخيراً في صالح المحتل . .

وظلت ذكرى المهرجان عالقة بذهني عندما عدت الى حجرتي بقرية الصخرة لاستأنف دراستي . . كان السي أحمد العروسي . . شيخنا في القرية، وهو يلقي دروسه حسب طريقة خاصة، فيجلس متكئا على حائط المسجد، وقد ادخل يديه الاثنتين في جلابته الصوفية . . ويضع على رأسه عمامة من الكتان الابيض... ولا يفتأ يهز رأسه بين الحين والآخر . . ثم يصوب نظراته على هذا او ذاك من طلبته ليرى هل ما إذا كانت الاستفادة من الدرس حاصلة أم لا . . ؟

كان في الستين من العمر ، سيل الوجه، طويل القامة... تنبت على صدغه قطعة حمراء من اللحم في حجم حبة الدرة، برزت على رأسها ثلاث زغبات شهباء. كان لا ينفك عن العبث بها بأصابعه المعروفة، مع أن ملامحه كانت تبدو قاسية الا أن عينيه كانتا تشعان بحب كبير، فكان يسأل عن أحدنا اذا مرض او غاب

وفي أيام العطل يقوم بزيارات مفاجئة لحجرات الطلبة وقد زارني ضحى يوم . . وكنت منهمكا في تنظيف البيت وترتيب أشيائي وحوائجي .

وابتهجت لمقدمه . . وسارعت إلى اعداد الشاي . . بعد أن وضعت إبريقي الازرق فوق المجمار.

دان وجه الشيخ متألقا وهو يتأمل حركاتي . . واستند على الحائط كما هي عادته . . . ثم أخذ يسألني عن آمالي في المستقبل، وهل ما إذا كنت سأنتقل، الى تطوان بعد إتمامي دراسة «الالفية» و «العصمية» بقرية «الصخرة» للالتحاق بمعهدها الديني وأجبته ؛ بأن كل ذلك موكول الى رغبة والدي.

وبعد ان اطرق بعض الوقت قال يستفسرني عن الاسباب التي تجعلني اكون ساهما اثناء إلقائه الدرس:

ـ لا أدري لماذا تبدو ساهما في أغلب الاوقات . . . ؟

ـ لا شيء وإنما فقط أفكر في مستقبلي.

ـ و كيف يمكنك ان تحقق النجاح في دروسك وأنت ساهم؟

ـ لا يا أستاذي . . وإنما فقط أحيانا أشعر بتضايق شديد من المناقشات والخلافات المحتدمة بين البصريين والكوفيين، وأظن أن ذلك مضيعة للوقت.

ـ ولكن . هل شيوخنا يضيعون وقتهم، وهم الذين أحاطوا بكل شيء علما . . . ؟

ـ ذلك زمان . . وهذا زمان والوقت في تطور

ـ اذن فأنت تضيع وقتك . . .

ـ أبداً وإنما آخذ الصالح مما أسمع . . .

ورأيت الشيخ يململ قليلا، وسرت حمرة خفيفة في وجهه وخشيت أن يغضب، ولذلك أسرعت الى تقديم كأس منعنع من الشاي اليه وأنا اهتف به مرحبا : ـ زيارتكم أسعدتني.

وجعل يحتسي الكأس وقد لفنا جو من الصمت . . وحدث أنه شاهد بين كراريسي وأوراقي بعض الجرائد . . . فتناولها وكانت تحمل عناوين ضخمة عن الحرب في اسبانيا . وفي هذه الاثناء قطع حبل الصمت قائلا :

ـ خطر شديد وكبير فيما لو انتصر الحمر .

بيد أنني قلت أسأله :

ـ وأي خطر تعني . . . ؟

ـ أعني أن الخطر يكمن فى عدائهم السافر للدين والمسلمين

ـ لا أظن ان الخطر موجود بالشكل الذي وصفت .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ كما هو معلوم يا شيخي أن الاسبان يقتتلون مع بعضهم البعض داخل دارهم وسواء انتصر هذا الجانب أو انهزم آخر فلا يعنينا كل ذلك في شيء . . . ؟

لكن ما قولك فيما يؤكده السي بوشتى الذي شاهد بعينيه جماعة من «الروخوس» يفتكون بمسلم . . . .

ـ طبيعي أن يحدث ذلك . . لانها الحرب . . . والحرب لا ترحم .

واحتدت المناقشة بيني وبين الشيخ وناولته كأساً آخر من الشاي . . وفي هذه اللحظة بالذات كان الفقيه السي الحمزاوي يؤذن لصلاة الظهر . . . وبعد انصراف الشيخ جلست أعاتب نفسي وأتساءل :

ـ هل ما إذا كنت قد أسأت له ؟ اما كان يكفيني أن ألوذ بالصمت . . . ؟ لماذا أعارضه في مسائل لا علاقة لها بالدروس التي أتلقاها منه ؟ إنني أخشى أن يأخذ عني فكرة سيئة، خصوصاً وان والدي ينصحني أن أكون عند حسن ظن شيخي دائماً . . لكن كيف لي أن أسكت عن آراء خاطئة يعتقد صحتها . . . ؟ وجعلت ألعن السياسة والسياسيين . . السياسة التي شغفت بها بواسطة الجرائد التي كنت أتوصل بها أنا الآخر بين الحين والحين من شقيقي الموظف ببلدية العرائش . . .

ماذا تهمني السياسة . . . ؟ ألا يكفيني أن أحصل على إجازة من شيخي حتى يسمح لي بالإلتحاق بالمعهد الديني بتطوان. كنت في الواقع أتوق إلى عالم آخر جديد. كان عالمي الذي أعيش فيه صغيراً وضيقاً لا يتجاوز البيت الذي آوي إليه بعد انتهاء الدروس ولا يتعدى فناء « المدرسة » والوجوه التي ألقاها اليوم هي نفس الوجوه التي ألتقي بها غداً ... كنت أنظر إلى

الدنيا الواسعة من خلال ما أقرأه في الصحف والمجلات التي كانت بمثابة النوافذ التي أشرف منها على عوالم فسيحة ممتعة ...

كان صوت المؤذن السي « الحمزاوي » الذي أسمعه في فترات النهار أو بعد منتصف الليل يوحي إلي بأن الزمن يدور حول نفسه. وأن لا شيء جديد في الحياة .

كان الشيء الوحيد الذي يستأثر باهتمامي هو عند ما أخلو إلى « الجماعة » فأجلس بينهم تحت « البريـة » وأسمعهم يتحدثون عن أحوالهم وظروف حياتهم . . وقد عرفت منهم « عمر الجرفطي » وكان في السبعين من العمر ومع ذلك فإن عينيه كانتا تتألقان ، كان يحتفظ بحيوية عجيبة . ويذكرون أنه متزوج بثلاث نساء، وله أكثر من عشرين ولداً، وبالرغم من أنه كثير الصمت، إلا أنه بين الحين والآخر يفتح فاه ليتحدث عن مغامراته الحربية ضد جيش الاحتلال، وكيف أنه استطاع أن ينزل افدح الخسائر بفرقة عسكرية، ومن بين الجماعة أيضاً عرفت الحاج ابراهيم وهو شخصية مرحة يكثر من الضحك والتنكيت، ولذلك كانت الجماعة تخشى سلاطة لسانه وهو بعكس زميله « الجرفطي » فان مميزاته ليست حربية بل تتناول فقط علاقاته وإعجابه الشديد «بالشيخات» وهو عندما يتحدث في هذا الموضوع فانك تجد الاسماع مرهفة تنصت إليه باهتمام بالغ .

وعرفت الشيخ (بوشتى) وكان قصير القامة ذميم الخلقة

تطفو على وجهه بثور الجذري، وفي عينيه اليسرى بياض قيل ان سببه مرض الرمد الذي ابتلي به منذ طفولته .

كان يبدو ساهماً شارداً وكأنه يفكر في وضع تصميمات وبرامج . . ويقال بأنه قضى أكثر من سنتين وهو يتردد على مغاور الجبل ليبحث فيها عن شيء ضائع، فمن قائل أنه يبحث عن كنز مدفون، ومن قائل أنه يبحث عن كيس مشحون بالريال الحسني .

كنت أجد متعة خاصة في التعرف إلى أهل القرية وأعيانها، وعن طريقهم عرفت الكثير عن المثل التي يحافظون عليها والعوائد التي يتشبثون بها .

ولقد حضرت يوماً موسماً أطلقوا عليه «موسم سيدي عثمان» وغايتي من وراء ذلك أن أتعرف إلى أكبر عدد من سكان القبيلة . وبهذه المناسبة يتوافد سكان القرى والقبائل المجاورة تتقدمهم الثيران وقد ربطوا على قرونها مناديل حريرية مزركشة . . بينما أنغام المزامير ودقات الطبول البلدية تتجاوب في الفضاء . . وأذكر أني شاهدت المراقب الاسباني برتبة ضابط عسكري يصفق مبتهجاً ومحيياً مواكب الثيران، فتعجبت من هذه الظاهرة الغريبة، وتساءلت في قرارة نفسي وأنا أتأمل نياشينه وشاراته المثبتة على صدره وكتفيه : ألا يكون هذا من باب تخدير عواطف الشعب ؟ ماذا يهمه موسم سيدي عثمان ؟

وتابعت «الثيران» طريقها لتذبح كغربان فى النهاية، وأحاطت النساء بالضريح، ووقفت جماعة من الرجال والنساء والاطفال قيل أن لهم النصيب الاكبر من اللحم لقرابتهم من الولي المحتفى به.

كان الغبار ينتشر كسحب كثيفة، فيقع بكثرة على «الحلوى» الموضوعة فوق الصناديق وسط العراء، أو داخل خيمات من الشعر، وتجمع الاطفال حول بائعي الزبيب والثمر الذين كانوا منهمكين في طرد الذباب المتجمع بواسطة مذبات مصنوعة من نبات الحلفاء.

كان منظراً مؤثراً، وإنك لتشعر بالقرف، وأنت تنظر إلى هذه الوجوه الشقية، وقد جاء أصحابها من أماكن نائية، والعجيب أني سمعت بعض السذج يتحدثون بحماس عن احترام سلطات الاحتلال لمواسمهم. وأكد أحدهم: أنه لولا بركات (سيدي عثمان) لما وقف المراقب الاسباني برتبته العسكرية الرفيعة يحيي الموكب . . ؟

والحياة في القرية ممتعة . . فالجبل الاخضر الكبير، والدور المعلقة في جوانبه . . وقد جثمت على سطوحها لفائف دخان أبيض . . والماء المتدفق في أعماق الوادي كشلال من فضة . . وكذا قطعان البقر والغنم والمعز . وهي تتسابق وتتنقل بين الاعشاب والشجر، كل ذلك يسكب عليها لوناً خاصاً من الروعة والجمال.

وفي بيتي الصغير كنت أجد سعادتي، وأنا أصلح فتيلة المصباح الزيتي . . أو أمسح زجاجته في المساء . . وحتى إذا ما أشعلت الفتيل انبعث ساطعاً متراقصاً يعكس على الحائط أشياء غريبة، أحياناً يعكس صورة أحد زملائي بأنفه المعقوف ورأسه الضخم.

ومع أن نور المصباح لم يكن في إشراقه ولمعانه كنور الكهرباء مع ذلك فانه يوحي بمشاعر لذيذة . . فهو يجعلك تعيش أوقاتاً تحس خلالها أن نفسك مستريحة مطمئنة ، . وكم يكون المشهد بديعاً، وأنت تتأمل فراشات من مختلف الاحجام تحوم حول المصباح الساطع، وقد أحبت النور، وودت لو تموت من أجل النور، وأذكر أن فراشة زارت بيتي ذات مساء، فشاهدتها وهي تحترق عند ما ارتطم صدرها الصغير بزجاجة المصباح وقبل أن تسقط كنت متفائلا لمقدمها. فتركت لها حريتها في التنقل . . كانت تنزل تارة على صفحات الكتاب الذي أقرأه. وتارة تحط على الكأس الذي أريد أن أشرب منه الشاي . .

والطالب في عزلته عن العالم والناس . . يجد نفسه تتفتح لاشراقة روحية أنه اشبه بالناسك المتعبد . . فحياته البسيطة . . وتناوله خبز الذرة وكمية قليلة من (البيصارة) أو العدس . . واكتفاؤه بالقليل من الطعام في أكثر الاحيان كل ذلك يؤثر على نفسه وسلوكه كانسان لا يعرف زيف المدنية . . وهو عندما يقرأ القرآن. ويتلو آيات بينات منه فانه يتدبر المعاني

باحساسه وشعوره، ويخشى أن يكون قد ارتكب معصية أو ذنبا، وحتى مغامراته كشاب مراهق معرض للزلل يود لو يطهر نفسه من آثامها بقـوة وعنف . . ومن أجل ذلك تلقاه يغسل جسمه بالماء البارد في فجر صفيعي من أيام يناير أو فبراير. إن شعوره بارتكاب « معصية » تظهر آثاره بينة واضحة على ملامحه، وهو يحاول الانزواء عن رفقائه وأصدقائه .

والواقع أنني كنت أتأثر لسلوك بعضهم . فهـم يخجلون لمنظر فتاة تعود من « العين » وهي تحمل جـرة الماء بينما هي ورفيقاتها يجدن الشجاعة الكافية للسخرية المحببة منهم والتعجب من سلوكهم . . ومن بين هؤلاء الطلبة رفيقي الحسين الغماري كان جميلا . عيناه واسعتان لهما لـون حمري وبشرة وجهـه صافية بيضا. زانتها لحيـة حالكة السواد. لقد سمعت عنه قصصاً عجيبة . . ويتحدثون في القرية أن إحدى بنات الشيخ (الزروالي) شغفت بـه وأحبته واغتنمت ذات ليلـة فـرصة انشغال السكان بحفلة (عرس) فخم، فاقتحمت فنـاء المدرسـة بحذر واحتراس، وطرقت حجرة الطالب . . . حتى إذا فتح الباب لقي نفسه وجهاً لوجه أمـام فتنة طاغية. وسارع إلى اغلاق البـاب حتى لا يـراه أحد . . ترى ماذا كان شعوره تجاه الفتاة وهي تضطرب كعصفور حائر أمامـه ؟ إن قوتين هائلتين تتصارعان في اعماقه . . كيف يتصرف أمـام فتـاة وجدت الجرأة للدنو منه متخفية تحت ستار الليل البهيم . . وأن صوتاً آخر يلح عليه : لا . . لا . . وفي غمرة

هذا الصراع الذي تأججت نـاره بين حناياه تناول شمعة مشتعلة، وجعل يحرق أصابعه بالنار، حتى إذا رأت الفتاة مسلكه العجيب إزاءها، أسرعت الى الابتعاد عنه، وقد أدركت مشاعره على حقيقتها.

سمعت هـذه القصة . . ولا أدري هل ما إذا كانت واقعية أم لا . . وإن كنت خـلال تأملاتي وملاحظاتي لمسلك الطالب مقتنعاً من صدق ما حدث للطالب مع بنت الشيخ (الزروالي) .

هـذه الاشياء التي كنت ألمسها حينـا أو أسمعها أحياناً فأبتهج بهـا، كانت تخفف علي نوعاً من الملل . . وأن الرقابة التي يفرضها علينا عادة نظـام الحياة تجعلنا ننظر باستخفاف إلى كل ما يجري حولنا وخلفنا، فيومنا وأمسنا يتشابهان في كون كل منهما لا يختلف عن الآخر، ولولا بعض الحالات أو الاحداث التي تعترض حياة هذا أو ذاك لخلت أن الامس واليوم شيء واحد

وقد عشت هذه الظاهرة بالفعل وأنـا في قرية (الصخرة) حيث ألقى نفسي تـارة قابعاً داخل صخرة صغيرة تشرف كوتها على أشجار الغابة أو أجلس وسط حلقة مستديرة في الجامع بين زملائي، بينما الشيخ يردد بصوت مبحوح أبياتاً من (ألفية بن مالك).

لـم يكـن هناك جديد في طـريقة الدروس التي كنت أتتبعها باهتمام، فالفقيه يجلس متكئاً عـلى حائط المسجد . . ثم يشرع في امـلاء درسه وعند ما أخلو بمسكني كنت أحـاول استذكار ما قرأته بصعوبة وعسر . . والكتاب وحده كان منجدي

الاخير عند ما يستعصي علي مشكل لغوي أو فقهي، وبذلك كنت أخلص ذهني وعقلي من البلبلة والتشويش . . .

وما كنت أخفي تضايقي وتأففي من الطريقة التقليدية التي كان يلقي بها الشيخ دروسه، وجعلت أقتنع يوماً بعد آخر من أننا نضيع شطراً كبيراً من عمرنا وجزءاً مهماً من حياتنا في الاستماع إلى خلافات البصريين والكوفيين، وصراع سيبويه والكسائي حول لسعتي العقرب والزنبور وأقوال الفقهاء التي لا تنتهي حول الكراهية والتحريم .

كان عزائي الوحيد هو تلك اللحظات التي كنت أقتطعها من وقتي كطالب مقيد بحصص معينة من المواد والدروس فأهرب إلى الخلاء . . وأنزل إلى الوادي . . وهناك أملأ رئتي بالهواء النقي . . وأستمع الى تغريد (أم الحسن) وهي تؤديها كسيمفونيات حنينة الوقع على الروح والنفس معاً . . . بينما الماء يجري عذباً صافياً بين الصخور، وأحس بحياة جديدة تدب في كياني. وتهزني بعنف. فأتنفس النسيم العليل بعمق، فتتصاعد إلى خياشيمي روائح النباتات البرية .

كنت شاباً لم يتجاوز سبعة عشر ربيعاً . . كنت أشعر باعصار في أعماقي . وأن الحبات الصغيرة الحمراء التي كان يطفح بها جبيني ووجهي . . والحالة العصبية التي تسيطر على حركاتي في أكثر الاحيان . . كل هذه أعراض سمعت أنها

خاصة بالمراهقين من الشباب، وقد أكد لي ذلك زميلي الطالب (السي احمد) وينصحني بألا أعتزل النـاس ومجالس السمر في القرية، ويحثني بـل ويلح علي أن أغامـر وأشارك في سهرات تمتد الى منتصف الليل على نغمات الناي وإيقاع (البندير) ولست أنسى (مغامرتي) الاولى عندما قفزت من فوق سياج القصب الذي يحيط ببيت الارملة (ارحيمو القصرية) مقتفياً في ذلك خطوات (السي احمد) وكان الظـلام دامساً . . وطائـر اللقلاق يبدو منتصباً فـوق سقف البيت وهـو يعابث أنثاه بمنقاره العجيب في زهـو وخيلاء . . بينما كانت الدجاجات والديوك تتناجى فـي وشوشة أشبه بزقزقة العصافير وقد تشبثت بأغصان شجرة التين، ولم يكن الكلب في الفناء . . وإلا كان من الصعب أن نقوم بهـذه المغامرة، وطـرقنا البـاب الخشبية في حـذر واحتـراس شديدين . وما أن فتح حتى بدت الدهشة على وجه المرأة وكادت تصرخ لولا أن زميلي سارع إلى اغلاق فمها بكف يده ودفـع بهـا بعيداً الى الداخل بجـوار السرير. وكانت همسات ولغطات انتهت في الختام بـزفرة مخنوقة أرسلها (السي أحمد) والـذي لـم أكن أتبين كل ملامحه بسبب كثافة الظـلام .

كانت فرائصي ترتعد وأنفاسي تتلاحق والكلمات المبحوحة تندفع مـن حنجرتي، فتتلاشى سريعاً، ودنوت أنـا الآخـر من المرأة . . وجعلت أتحسس وجهها الـذي اهتديت اليـه بواسطة

أنفاسها التي بعثت في نفسي قرفاً مثيراً، وشعرت بأعصابي تنهار تماماً وأنا الثم وجهاً ذميماً لامرأة في سن الاربعين .

والحقيقة أنني لم أكن أدرك السر الكامن في اتصالات الرجل بالمرأة . ذلك لان هذه أشياء سمعتها منذ الصغر . . . دون أن أهتم بها كثيراً . . وحتى عندما شاهدت لاول مرة بسينما (ناسيونال) بالعرائش صورة بطل الفيلم وهو يقبل فتاة حسناء . . أدركت أن المنظر طبيعي يشاهده الناس على الشاشة. وأعتقد أن نظام حياتي وسط عائلة متحفظة وكذا قساوة التربية التي فرضها والدي على الاسرة . . كل ذلك قد جعل مني شاباً خجولا ينشد العزلة والانزواء .

إني أذكر حفلة عرس الجيران التي أقيمت في منزلنا . . وكان مساء جميلا زادته أنوار المصابيح الكهربائية بهاء وروعة . . وأقبل المدعوون الذين كان أكثرهم يلبسون الجلابات البيضاء من نوع (البزيوي) الفاسي أو من نوع (المحبب) الشفشاوني . . كنت أجلس على كرسي في مدخل الدار . . وكان والدي ورجال آخرون يستقبلون الناس بالترحاب والسلام . . كانت الموسيقى الاندلسية تنساب في رقة بين جنبات البيت . . كنت أتأمل ملامح العريس وقد أشرق وجهه وتألقت أساريره وتساءلت آنئذ : لماذا يبدو ضاحكاً وسعيداً أكثر من الآخرين . . . ؟ أهناك شكل جديد من الحياة سيقبل عليه العريس فى مستقبل أيامه.

كانت الفتيات والنساء يشرفن من فوق سطح المنزل، كن يتفرجن على الرجال، وسمعت ضحكاتهن الخافتة، وشاهدت فتيات يتغامزن، ويشرن بأصابعن الرقيقة بحذر الى هذا أو ذاك من الشبان المدعوين . . ولفتت نظري خاصة بنت خالتي كنزة بثوبها الوردي وشعر رأسها المقصوص على الطريقة الاسبانية الحديثة . . كانت تنتقل كصبية مرحة . . كنت أتأملها في صمت، وأحس في نفس الوقت بلسعات من نار تلفح وجهي، كانت نظراتنا تلتقي بين حين وآخر فأشعر بالخجل . . وان كنت أجد سعادتي في ان كنزة قريبة مني .

لقد سمعت كثيراً عن الحب، بيد أنني لم أكن أترجمه إلا عن طريق الاحساس الخاص بيني وبين أبوي . ولا أدري لماذا كان والدي يملؤ نفسي حباً وحناناً. إنه الانسان الذي لم أكن أراه إلا في لحظات قصيرة جداً في النهار وفي الليل . . ذلك انه كان يقضي اليوم كله في حانوته الصغيرة بالسوق الكبير، كان يعود إلينا بعد صلاة المغرب، فأشاهد أمي تستقبله وتبتهج لمقدمه . . ثم تتناول منه (القفة) فتذهب الى المطبخ، وهناك تفرغ ما فيها من سمك وخضر وخبز .

• • •

كانت حياتي تمضي رتيبة لا يعكر صفوها الا ما أسمعه بين الحين والآخر من انتقاد مر لتصرفات القائد والمراقب إزاء الفلاحين . . . حتى ناظر الجامع نفسه عمد الى تجاهل رغبة

الطلبة عند مـا أعلنوا له عن حاجتهـم الى الزيت لاستعماله في انارة قناديل المسجد .

عرفت هذا الناظر في اليوم الاول من وصولي الى القرية . كان بديناً جداً تمتد أمامـه كرشه العريضة الملفوفة بحزام من الجلد ، كانت عيناه صغيرتين ، وسبب ضيقهما على ما أظن هو طغيان طبقة كثيفة من الشحم عليهما ، كان عاري الرأس دائماً بالرغم من أن المراقب ألح عليه أحياناً استعمال عمامة كبيرة تناسب مقامه ووظيفته .

ولست أدري لماذا كنت استثقـل منظره وهـو يخطـو في الفناء ، او عند ما أراه داخلا او خارجا من (خزين) الجامع وقد رأيتـه صدفة ذات يوم وهو يفرغ السمن في كيس ، ويجعله في (سطل) . كان من أثرياء القرية المحظوظين ، بل يقال عنـه أنه يملـك ستـة أزواج من الثيران ومائتين وخمسين رأسا من الغنم وعدداً آخر من البغال والخيول .

وعند ما توجهت رفقة بعض زملائي لزيارته في منزله الفخم القائم في مكان يدعونه (النزاها) أطل علينا من نافـذة غرفته برأسه الاصلع، وقال يسألنا بصوت أجش :

ـ مـاذا تريدون مني . . ؟

أجابه أحدنا :

ـ الزيت . . الزيت .

وأردف آخر .

ـ منذ ثلاث ليال ونحن في ظلام دامس .

كانت عيناه تدوران في محجريهما . . وهـو يصوب الينا نظرات قارسة . كانت حبات العرق تشرق فوق صلعته ، وهو يلوح الينا بسبابة يده ويقول :

ـ « آلطلبة » اشغلوا أنفسكم بقراءة « الكواغط » هـذا هو عملكم . . . وما لكم والزيت . ؟ ثم أغلق النافـذة بغضب ، وهو يصرخ بكلمات نابية هاج لسماعها قطيـع من الكلاب الضارية التي كانت تحرس الممرات القريبة من بيت (الناظر) فأقبلت تهجم علينا.

وعـدنا من حيث أتينا ، وفينـا المتشائـم ، وبيننا المتفائل ، وانشطرنـا الى قسمين : فريق منا ينـدد بسوء معاملـة الناظـر ، وفريق يلتمس له المعاذير، ويطلب التريث والانتظار، ريثما يجمع محاصيل الزيتون ، ويلقي بها في « المعصرة » وأذركت بحكم البديهة ان ثراء الناظر انما جاءه عن طريق أحباس الجامع، وان عدة أكياس من السمن والزيت يتجر فيها ، ويستلم مقابلها مبالغ طائلـة من الاموال ، والعجيب في الامـر ان « شيخنا » لم يجد الشجاعة الكافية ليصارح الناظر في شأن حاجـة قناديل المسجد الى الزيت . بل كان يكتفي فقط باشارات مهذبة وعبارات فيها الكثير من المجاملة يقهقه لها « الناظر » ولم أدرك سر ذلك إلا بعد ما علمت ذات صباح من الفقيـه « بوجمعة » من ان الناظر أصبح « برمكيا » ويقيم مآدب فاخرة يقـدم أثناءها لضيوفه لحم

الخرفان المشوي والدجاج المحمر ، وان الشيخ نفسه يحضر هذه المآدب الى جانب المراقب والقائد .

ولقد تألمت جداً لهـذه الظاهرة ، وآلمني أكثر ان أشاهد سكان القرية يتملقون « ناظر جامعهم » ترى أية قوة خفية عند الناظر . . ؟ لما ذا يخشاه الناس وعلى رأسهم شيخي . . ؟ ومن أين يستمد وجاهته ونفوذه . ؟

تلك أسئلـة كانت تقلقني وتحيرني ، وان كان منظـر أكياس السمن وهي تفرغ سيبقى ماثلا أمامي

ومضى اسبوع ، وتلاه آخر دون ان يظهر أي أثر للزيت . كانت قناديل المسجد مطفأة ، وقد شدت بأسلاك مثبتة في سقف الحائط بالمسامر ، ولولا ثلاث شمعات خافتة الضوء وضعت احداها بجانب المحراب ، وأخرى وسط المسجد وثالثة قرب الباب لكان المسجد مظلما تتراقص فيه أشباح الليل .

وأذكـر اني خاطبت « شيخي » في الموضوع بيـد أنـه أجابني باقتضاب .

- وماذا سأعمل « الله يهديه علينا أوكان »

وتحدثت الى زمـلائي في نفس الموضوع فانشطروا مـرة أخرى الى قسمين .

● ● ●

كان حدثا صغيراً ، ولكنه مع ذلك جعلني أؤمن ان الناس لا يهتمون بالجوهر بقدر ما يغترون بالمظاهر ، لقد عرفت زملائي واحداً واحداً وعرفت شيخي هو الآخر على حقيقته ، ومع تقديري له أعيب عليه خوفه وتردده وتملقه لناظر الجامع ، تساءلت في قرارة نفسي : ترى لماذا يهاب سكان القرية ناظر المسجد كما يهابون سلطة المراقب . . . ؟ هلا أدركوا الى اي حد ينافقهم الرجل وهو يظهر استعداده ونشاطه للاحتفال بموسم سيدي عثمان . . . ؟ هلا التفتوا ببساطة الى بيته الفخم الجديد الذي رفع بناءه في أحسن موقع ، بالقرية ، وتساءلوا ببساطة من أين له ذلك . . . ؟ وقد عرفوه قبل أن يصبح « ناظراً » مزارعاً بسيطاً يكسب ثوراً وبقرة وعشرة خرفان ؟

كنت أحاول عبثاً أن أجد الجواب لديهم وهم مجتمعون تحت شجرة (البرية) لكنهم مع الاسف كانوا غارقين في مشاكلهم العائلية والاجتماعية . . . وكيف ان السيد حمدان رفض تزويج بنته « خدوج » من السيد بن المعطي بسبب أن محاصله قد نقصت عما كانت عليه . ثم كيف ان السيد العياشي السماتي هوى بمطرقة حديدية على رأس جاره الحسناوي بسبب نزاعهما حول موقع (الدفلة) في أرض هذا أو ذاك

كان لغطهم يشتد حينا ويخفت أحياناً، ورب مشكلة تافهة كانت تقلقهم، وتحمي وطيس جدلهم ، ولم يفكر أحدهم يوماً ان يتحدث عن شقائه وعذابه . كانت أحاديثهم تتناول في غالب

الاحيان أتفه ما في الحياة من زيف . سمعت أحدهم وكان فلاحاً بائساً يثني على « الناظر » بأجمل الالقاب ، وسمعت آخر يتحدث عن أمجاد المراقب وتواضعه وكرمه الحاتمي وهو يوزع السكر وقطع الصابون على زوجـات الفلاحين وأطفالهـم . كنت أهم بمقاطعتهم في كل ما يقولون بيـد أن زميلي احمد أشار إلي بطرف عينيـه اليمنى أن ألتـزم الصمت ، ونبهني إلى الفرجاني محمد الذي كان يجلس إلى جوارنا . كان يبدو صامتـاً لا ينبش بكلمة واحدة كان يتجه بنظره وأعصابه إلى حركات الالسنة ، وخلته أول الامـر مصاباً بالخرس ، لكن زميلي همس في أذني قائلا : إسكت إنه ينقل الاخبار للمراقب . كان يلبس جلابـة شهباء من الصوف ، وعلى رأسه عمامـة بيضاء نظيفـة ، ويتدلى من أذنه اليسرى قـرط صغيـر من الفضـة يطلـق عليـه « العياشة » .

ولم أكن أدري بعد أن عرفت الرجل لما ذا يعمل جاسوساً مع المراقب ؟ ؟ أيكون الفقر وضيق اليد دفعا بـه الى التجسس على إخوانه وتتبع حركاتهم وسكناتهم مقابل « بسيطات » قليلة يستلمها من ادارة المراقبة في « سوق السبت » عند مطلع كل شهر ؟ وآمنت آنئذ بأن الجهل هو أصل الداء ولو كان مدركاً محنة إخوانه ومأساتهم في ظـل استعمار ينهب ولا يرحم ، لعدل بسرعة عن موقفه، ولقطع كل صلاته وعلاقاته بالمراقب الاسباني الذي لا يهمه إلا أن يعرف ماذا يقوله الناس فى مجالسهم عن الدولة الحامية؟

كان التفاوت رهيباً وبعيداً بين الفلاحين وأصحاب السلطة. فبينما أكثر الفلاحين لا يجدون قطعة أرض يحرثونها نجد القائد والناظر يملكون مساحات شاسعة تذر عليهم ربحا وافراً .

إنني أذكر اليوم الذي رافقت فيـه « شيخي » الى كوخ يظلله سقف من التبن يحيـط بـه سيـاج من القصب والشوك . سمعت نسيجاً عالياً وأصواتاً رقيقة حادة ، شاهدت مجموعة من النساء وهن يولولن ويبكين . كان صاحب الخيمة قد توفي ، ورأيته ملفوفاً في قطعة ثوب متسخ لم تستر جسمه كله ، فبدت أصابع قدمه بلون أصفر فاقع من خـلال الكفن . كان يحيط به خمسة من الاطفـال ، وتأملتهـم في حسرة وأسى وهـم يتشبثون بأذيـال أمهم التي جمـدت نظراتهـا ، من غيـر أن يدركوا تماماً حقيقة الموقف ، كانوا أشبـه بالكتاكيت الصغيرة التي تزقزق دائماً .

وافتتح الشيخ سورة (يس) على روح الفـلاح فشرعنـا في القراءة ، كانت أصواتنا حزينـة زادتها رهبـة تلك الظلال التي نشرها الموت في بيت فـلاح بائس مضن ، لـم يخلف لأولاده الخمسة شيئا من حطام الدنيا . وتلاحقت أمامي عدة وجوه وصور شاهدت بينها ملامـح (الناظر) وهو يبتسم في مكـر ، ويحاول إخفاء آنية السمن عن الانظار .

وعند ما كان شيخي يتلوا آيات القرآن بصوت عـال ، كنت أطرق برأسي لأتأمل الموت والحياة في وقت واحد ، تجسم

لي الموت بشكله المرعب ، وقد امتد فوق لوحة خشبية ، وتجسمت لي الحياة بوجهها الحقيقي وأنا أرى أطفالا صغاراً يحملقون بنظرات خائفة هنا وهناك ، وكأنهم يحاولون الفرار من المصير الذي آل اليه والدهم .

• • •

لست أدري هل ما إذا كان رفاقي ذوي حساسية مرهفة مثلي أم لا . . . ؟ ولا أعتقد أن أحدهم قد يتأثر للمشهد الانساني الذي حفر ثغرة عميقة في نفسي . كل ما أعلمه عن زملائي هو أنهم يعلقون آمالا عريضة على المستقبل ، ويطمحون الى أن يكونوا عدولا أو قضاة أو شيوخاً ، كانت أهدافهم وأمانيهم تنحصر في أن يصبح أحدهم شخصية مهابة محترمة ترتدي من الثياب أنصعها بياضا ، وقد حدثني عن ذلك ، زميلي « السي احمد » عند ما أكد لي انه يطمح الى منصب قاض ، بقبيلة بني عروس ، واستفسرته عن سبب إصراره على منصب القضاء فأجابني :

ـ الا تعرف يا صاحبي ان الجاه والمال والشهرة أشياء لا يمكن ان تتحقق للشخص إلا إذا كان في منصب سام . . ؟ وهل هناك أسمى وأفضل من وظيفة قاض ؟ تصور ان القاضي يكون مهاباً مجللا بالوقار والاحترام أينما حل وارتحل . تلك كانت آمال زملائي في الحياة . كان طموحهم لا يتجاوز كرسياً يجلسون عليه للحكم بين الناس ، بينما كنت أطمح أن أكون

(أديباً) ثم لا يهمني المنصب أو الجاه . كانت المقالات الادبية الرائعة لزكي مبـارك ، وأحمد أمين ، ومصطفى صادق الرافعي التي كنت أقرؤها على صفحات المجلات الشرقيـة التي كان يبعث بها الي أخي من العرائش تسيطر على مشاعري ، وعنـد ما كنت أقرأ أبياتاً رقيقة من شعـر البحتري وأبي الطيب المتنبي وأحمد شوقي وابراهيم ناجي كان يخيل الي أني أعيش وحدي في دنيا جميلة لا يعرف زملائي عنها شيئا . كانت دنيا زاهرة تغرد البلابل في جنباتها ، وتتراقص فراشات الربيع في أجوائها

ما كنت أدرس علوم العربية والبلاغة لأصبح قاضياً . . وان كنت أعلم أن هذه هي رغبة والدي وأسرتي بالضبط . . كانت غايتي من وراء دراسة « ألفية بن مالك » هو أن أستطيع التعبير عن ذاتي، وليس لي من سبيل الى ذلك اذا لم يسلـم اللسان أو القلم من الخطأ في التعبير .

كانت علوم النحو واللغة عندي وسيلة لا غير، أستطيع التعبير بواسطتها عن مكنونات نفسي في يوم من الايام ، بينما زملائي يدرسونها لتساعدهم على كشف وحل رموز « الشيخ خليل ». كان شيخي مصيباً عند ما لاحظ علي شرودي أثنـاء إلقائه الدرس ، بل ربما أحس بتأففي وتضايقي من المناقشات والخلافات التي تحتدم بين الشيوخ والفقهاء . ولا تنتهي أبداً .

كان شرودي في الواقع يرجع الى اقتناعي بأن لا فائـدة يمكن أن يحصل عليها الطالب من هـذه المصنفات والشروح

المطولة ، ثم ان شيخي لم يكن يفقه ماذا تعني كلمة « أدب » ولذلك كان يستغرب من وجومي .

كنت أحيانا أهيم على وجهي في السهل والجبل لأخلو الى نفسي ولاردد في وحدتي قطعة أدبيـة من كتاب « دمعة وابتسامة » لجبران خليل جبران أو قصيدة من شعر أبي القاسم الشابي . كان الكون كله يتحول عندي الى سمفونيـة تعزفهـا أصابع فنان كبير ، فتتلاحق أمام ناظري صور الشعراء والكتاب والمفكرين ، فأراهم وهم يمشون في مواكب عظيمة تحرسهـا ربات الوحي بأجنحتها النورانية .

كانت قشعريرة باردة تهـز كياني كله . . وأنا أعيش واحيا في محراب نسيجه من جمـال الطبيعـة حيث لا زيف . . ولا شر . . .

كان شعر رأسي ينتصب ، ودموعي تطفر من عيني فلا أدري لذلك سراً ، وكم كنت أحسد البلابل على حياتها المرحة وهي تتنقـل بلا قيود أو حواجز بين الاعشاب وأغصان الشجر . كنت أحسدها على رشاقتها وسعادتها ، وهي تتحدث بلغـة عذبة وتشقشق بأنغام صداحة هي الشعر نفسه .

كان الوقت ربيعاً من أيـام أبريل سنـة 1939 . . وبراعم الزهور في كل مكان تتفتح لاستقبال حياة جديدة

ان الحياة التي نعيشها تكون أقسى عند مـا يضطر أحدنا الى فراق مكان عزيز لديه ظل في رحابه ردحا من الزمن . .

والحقيقة اني ما كنت أتوقع أن أتأثر كثيراً لمنظر رفقائي وهم يودعونني في سوق السبت « ببني جرفط » لقد أحاطوا بي من كل جانب ، كانت سحناتهم توحي اليك بالشقاء الصامت ، ومع ذلك فان وجوههم لم تفتر عن الابتسام ، وحتّى في أحرج أوقاتهم لا يفتؤون عن المداعبة وارسال النكت ، كنت أنظر اليهم فأحس بأني أنفصل عنهم ، وان الايام التي قضيتها معهم في قرية الصخرة ستبقى طيفاً جميلا يداعبني بين الحين والآخر .

وتحركت الحافلة الكبيرة ، واهتزت معها نفسي ، وكان خيط دقيق رقيق يوشك ان يتمزق ، وتعالت أيديهم المعروقة ، وأشرقت عيونهم ، وشيئا فشيئا ابتعدت عنهم ، وحجب الغبار الذي أثارته السيارة وجوها وملامح سعدت معها سنتين كاملتين فى القرية.

كان الطريق الذي يربط سوق السبت بالعرائش رديئاً جداً ، فالحفر كثيرة والاحجار متناثرة . . الشيء الذي جعل السيارة تحدث صخباً متواصلا وترسل من ورائها دخاناً قاتماً مع رائحة البنزين ، ورأيت سيدة بجواري تخرج رأسها من النافذة لتتقيأ . .

كنت أفكر في أشياء كثيرة ، وتراقصت السنتان أمامي ، وكأنهما دقيقتان من عمر الزمن ، وجعلت أتطلع الى المستقبل ، ترى هل ينكشف لي على شاشة بيضاء . . ؟ ماذا يمكنني أن أعرف عن تطوان التي أحن اليها بسبب ما أسمع عنها من أشياء مثيرة . . . ؟

هل ستتميز حياتي بها عن الحياة التي عشتها في قرية الصخرة ؟ انني سأكون بها في الاسبوع التالي . . . وقد تتساءلون لم هذه السرعة كلها ؟ فأجيبكم ان ذلك لم يكن لي فيه شأن ، فوالدي وشقيقي الاكبر ألحا علي في ذلك ، وكان لا بد ان أطيع .

كنت أرتدي جلابة من الصوف ذات حبات بيضاء صغيرة ، كنت لا أفتؤ بين الحين والحين أتطلع الى وجهي في المرآة التي اقتسمتها مع السائق . كانت لحية شهباء خفيفة تحيط بوجهي ، هذا الوجه الذي قد تتعجبون من صاحبه اذا قال لكم : ان عمره لا يتجاوز تسعة عشر ربيعاً ، فالتجاعيد بدأت تشق طريقها على الجبين ، والعروق تبرز على الصدغ ، وتتصل بالعنق ، وقارنت بيني وبين السائق الذي قدرت أن يكون سنه خمسين عاماً ، ومع ذلك كان أحسن حالا مني ، فوجهه الحليق ، وربطة عنقه المزركشة ، وخاتم الذهب في أصبع يده اليسرى ، كل ذلك جعلني أطيل التأمل وأمعن في المقارنة .

حقيقة ان حياتي في القرية كانت قاسية من الناحية الغذائية فوجبات الطعام التي كنا نتناولها في أغلب الاحيان كانت تشتمل على كمية قليلة من « البيصارة » وقطعة من خبز الذرة والشعير . . والسكان في القرية لا يعرفون وسائل التغذية السليمة ، فهم يأكلون متى جاعوا ، ولا يتحرون في غذائهم ،

واني أعزوا ذلك الى فقرهم ، وأغلبيتهم نعيش عاماً كاملا بمحصول قليل من الزرع والشعير . كان الكثير منهم يموتون وهم في شرخ الشباب ، ورب نزلة بـرد تكون سبباً في وفاة أحدهم ، فليس في القريـة طبيب يعالج أمراضهـم ، وليس بهـا مستوصف يترددون عليـه ، كان المـرض عند مـا يعصف بالقرية أشبـه بوبـاء الدجاج ، فتجـد عدوى المرض تنتقل من بيت الى بيت ، وتأخذ معها الصبايا والاطفال والرجال على السواء .

كان الهواء النقي والشمس المشرقة الصافية ، وأريج الخضرة والربيع ، هم الشيء الوحيد الذي يخفف من آلامهم ، ويعوضهم من علاج الطبيب ، وعناية الممرض .

كان وجهي يتراءى لي في المرآة الصغيرة شاحبـاً ، ولم أتألم كثيراً لهذا المنظر ، لاني كنت جزءاً من أولئك الذين قاسمتهم السراء والضراء في قرية الصخرة .

• • •

وانتقلت الى مدينة تطوان . . . المدينـة الحمامة كما قال عنها شاعر من أبنائها :

تطوان مـا كنت الا

بين الجبال حمامة

كان يحتضنها في حنان من جهة ، جبل غرغيز ، ويشرف عليها من جهة ، جبل درسة بأبراجه القديمة .

كانت مآذنها وبناءاتها البيضاء والاسوار المحيطة بها ، وكذا الابواب الاثرية مثل « باب العقلة » و « باب السعيدة » و « باب التوت » والمدافع القديمة المنتصبة عليها كل هذه الاشياء أضفت على المدينة جواً حالما يمتاز بالجمال والبراءة .

والواقع اني ما كنت أعرف عن تطوان شيئاً قبل ان أحل بها ، كان الوقت صباحاً عند ما نزلت من سيارة حمراء لنقل الركاب ، كان الامل يداعبني وأنا أنزل حقائبي وأكياسي على الرصيف ، لم يكن عندي أي هدف ، كل ما كنت أحتفظ به في جيبي توصية من لدن ناظر الاوقاف في العرائش التي تربطه بوالدي علاقة طيبة الى ناظر تطوان وفيها يقول له :

أرجوكم مساعدة حامله الشاب المهذب . . . في الحصول على بيت للسكنى في مدرسة لوقش .

وكان لهذه التوصية أثرها البعيد في حياتي، ذلك ان الناظر الحازم عمل بما جاء فيها ، وسلمني حجرة للسكنى بالمدرسة ، ومع انها كانت شديدة الرطوبة إلا أنني حمدت الله وشكرته على أن منحني مكانا أستقر فيه ، وقد سمعت ان طلبة عديدين لم يحصلوا على السكنى بالرغم من كونهم قدموا طلباتهم منذ مدة طويلة . . ترى هل هذه « محسوبية » جديدة وان الامور

لا تسير على طبيعتهـا إلا بواسطة التوصيات . . ؟ كان من الانانية الصارخة ان أحصل بمنتهى السرعـة على حجرة بمدرسة لوقش . . . ولكن ماذا عساني أعمـل ووالدي يستحثني على الاتصال بناظر تطوان وتسلمه توصية زميله ناظر العرائش .

وتراءت لي صورة باهتة لمقدم جامع الصخرة ، وقارنت بينها وبين ملامـح الناظرين فألفيت ان هناك نوعاً من التشابه في الملامح والتصرفات

كانت ليلتي الاولى في مدرسة لوقش تختلف عن ليـالي السابقة بقرية الصخرة ، فالمدرسة تعج بعشرات بل مآت من الطلبة الوافدين عليها من الريف والجبل ، والحجرات الصغيرة لاصقـة ببعضها ، كان علي أن أبدأ حياة أخرى ، وكان لابد أن أبحث عن أصدقاء جدد

وسمعت في اليوم التالي همساً بين جمع من الطلبة كانوا واقفين بباب المدرسة ، كان أحدهم يقول لرفيق له :

غـداً سينظم مهرجان عظيم بالمسرح الوطني . . وسيخطب فيه الزعماء . كانت تطوان آنئذ تشهد تجمعات سياسيـة والدولة الحامية وراء كل تجمع يستهدف تخدير العواطف . كانت الحرب الاهلية لا تزال محتدة بين الجمهوريين وأنصار فرانكو ، وعمدت السلطات الى نصب بوق في ساحـة الفدان ، كانت تذاع من خلاله أخبار انتصار « الكاوديو » على خصومه ، كنت أرى الناس

يتجمعون حول مكبر الصوت ويستمعون الى المذيع وهو يعلن بصوته المبحوح :

النصر حليف « الكاوديو » .

وتساءلت في قرارة نفسي عن ماذا تعني كلمة النصر . لقد شاهدت في الشارع فرق الفتيان المنتمين للحزب الوطني كانوا يرتدون أزياء زيتية اللون تميل قليلا الى الزرقة وهم يسيرون في الشارع باستعراض بديع .

وكان مهرجان المسرح الوطني متمماً لكل ما لمسته في الايام القليلة من وصولي الى تطوان ، فلقد تعاقب على المنصة عدة خطباء كانوا مجمعين على أن الاستقلال آت لا محالة ، وانه من واجب اسبانيا ان تقدر الموقف ، ودوت الهتافات منادية بالحرية والاستقلال ، واندفعت الجماهير في مظاهرة نحو ساحة الفدان ، وهكذا تعاقبت المهرجانات والاحتفالات كنت أثناءها أشبه بكرة طائرة تتقاذفها الرياح ، وتهامس بعض أعوان السلطة : إن الدولة الحامية تغدق آلاف البسيطات على أعضاء الاحزاب وبدأ شك غريب يساورني ، وان كنت في الحقيقة أشعر برغبة طاغية في أن أرى علم الحرية يرفرف على بلادي

لم أكن أدري بالضبط لماذا توزع اسبانيا الاموال بسخاء على منطقة حمايتها؟ أيكون ذلك كله من أجل سواد عيون المغاربة كما يقال؟ أم لمصلحة خاصة . . ؟ لقد سمعت ان آلاف

الجنود من قبائل الجبل سقطوا ضحايا الحرب الاهلية ، وأيقنت ببساطة انه لابد ان يكون هناك مقابل لهذه التبرعات السخية التي تجد طريقها في سهولة ويسر الى جيوب أصحابها . كانت الدعاية تملأ كل مكان ، ودعوات المشعوذين وأصحاب الطرق تهتف بالنصر والتأييد « للكاوديو » ترى من يكون هذا القائد الصارم الذي يقود معركة ضارية ضد خصومه ؟ سمعت جندياً عاد حديثاً من الميدان يقول عنه ، انه ربما يعلن إسلامه ، وقال أحد الخطباء : ان فرانكو صرح أمام حشد من رجال الصحافة بأن زهرة النصر سيقطفها المغاربة .

كان مثل هذا الكلام يثار بين فينة وفينة . . كان أشبه بالعواطف التي تدغدغ همم الذاهبين الى ميادين الحرب ، وفي غمار هذه العاطفة ، كنت أحس بنوع من القلق والحسرة . كان التاريخ قريباً مني ، كان يحدثني عن أشياء مجيدة . بينما الاحتلال أصبح أمراً واقعاً على الوطن في الشمال وفي الجنوب . كانت ذكريات البطولة التي أثارها الامير عبد الكريم الخطابي والمجاهد مولاي أحمد الريسوني ، تقرع أسماع الاحرار في المشرق والمغرب ، ومن فوق جبل غورغيز المشرف على المدينة كانت مدافع المجاهدين تدك وتقصف ثكنات الاحتلال .

انه بمقارنة بسيطة بين الماضي القريب والحاضر أدركت الى أي حد ينسى الناس أمجادهم ، ثم ينساقون كقطيع ضال وراء الخيال ، كان كل ما أراه حولي سراباً مغرياً ، فالمصابيح

الكهربائية تلمع أنوارها في ساحة الفـدان ابتهاجاً بيوم النصر ، والجماهير تتقـدم في مواكب ضخمـة وهي تهتف بالاستقلال ، وأذكر ان معركة نشبت ذات مساء بين جماعتيـن استعملت فيها الخناجر والزجاجات الفارغة والكراسي

كنت أرى ذلك كله فألود بالصمت . واتخذ طريقي الى حجرتي الصغيرة بمدرسة لوقش المعادية لسوق الغرسة الكبيرة .

• • •

« والجامع الكبير » كان هو المعهد الديني نفسه . . ففيه يتلقى الطلبة دروسهم ، يؤمه المصلون في أوقات الصلاة ، وكنت ترى حلقات مستديرة هنا وهناك، وفي وسط كل حلقة يبرز شيخ لا يفتؤ بين الحين والآخر، يرفع احدى يديه أو يشبك أصابعه ، بينما الطلبة يستمعون اليه ويصغون الى درسه ، لم يكن هناك أي فرق بين شيخي في قرية الصخرة وشيخي الغماري في الجامع الكبير ، كلاهما يتكىء على حائط المسجد . وكل منهما يناقش مع طلبته آراء أهل الكوفة والبصرة ، كانت تلك صدمـة أخرى قاسية . فقد كنت أؤمل أن أسمع أفكاراً جديدة وآراء ناضجة ، فاذا بي أدور في حلقة مفرغة ، فالشيخ يرفع عقيرته ، كما يفعـل شيخي القديم بالضبط ، فهـذه ألفية بن مالك . وتعني ألف بيت من الرجز ، ورب بيت واحد يقضي الشيخ في شرحه ثلاثة أيام

متوالية . . فهو مثلا لا ينتهي من الشرح والتعليق على معنى قول ابن مالك :

« كلامنا لفظ مفيد كاستقم » . . .

كان الطلبة يحدقون في تقاطيع الشيخ وملامحه المعروقة وكلهم آذان صاغية لما يقول كانوا أشبه بالاطفال في (المسيد)، ومناقشتهم للشيخ كانت هزيلة في أغلب الاحيان ، ويرجع ذلك الى طبيعة الخجل المتأصلة في أعماقهم، وينظرون الى شيخهم عادة بمنظار الوقار والاجلال .

وفي طريق عودتي من الجامع الكبير الى مدرسة لوقش كنت أمر على (الغرسة الكبيرة) التي هي عبارة عن مجموعة من البراريك الخشبية الصغيرة التي يتعاطى أصحابها تجارة الخضر والفواكه ، وهناك ساحة لاصقة بالمدرسة خاصة ببيع الخضر بالجملة ، وهكذا يتأتى الك في كل صباح أن تسمع صوتاً حاداً فيه بحة ، وقد أخذ صاحبه ينادي بأثمان كل نوع من الخضر . كنت أقف أحياناً بضع لحظات لأتأمل الرجل . كان وجهه محتقناً يكاد الدم يتدفق منه ، كما ان رأسه الاصلع كان داخلا في بقية جسمه ، بحيث ان عنقه لا يكاد يبدو له أي أثر ، ولأشد ما كان يبهجني ان أراه متفائلا مشرق الاسارير ، بالرغم من الازدحام الشديد والصياح المرتفع ، وبالرغم من كونه يلبس ثلاث جلابات من الصوف الخشن ، فهو لا يغتاظ ولا يقلق . . كان في

كثير من المرات يبتسم مزهواً لهذا أو ذاك ، وكيف لا يفعل ذلك وهو يدير أكبر أسواق الخضر بالجملة بتطوان .

كانت تشرف على (الغرسة الكبيرة) مجموعة من البنايات القديمة ، لكن أبرزها هي « القهوة » البلدية التي تطل نوافذها الصغيرة المفتوحة دائماً على الساحة . . كان هذا المقهى يكتظ كل مساء بخليط من رجال الجبل ذوي الجلابات الصوفية والعمائم المزركشة ، وكنت ترى بينهم من يضع على رأسه الشال الاصفر ، كانوا يجتمعون في ناديهم المفضل ليطربوا ويغنوا ، كان قرع الدف يسمع ممزوجاً بأصواتهم الصافية . . . كانت أغانيهم الجبلية تتردد في ساحة الغرسة ، وتحس بوقعها في نفسك ، ان دقات طبولهم الرتيبة ومواويلهم تذكرك كثيراً بحياة أبناء الجبل ومواسمهم ، انهم لم يغيروا من طبيعتهم ، بل ظلوا على سجيتهم وفطرتهم رغم انهم نزحوا قديماً الى تطوان

كانت هذه الاشياء جديدة علي ، وبمجرد ما أقبع داخل حجرتي الرطبة بمدرسة لوقش حتى أنسى كل شيء ، وحتى مشاهد الطبيعة التي استمتعت بها ردحا من الزمن في قرية الصخرة جعلت أنساها ، فعالمي لم يكن سوى حجرة صغيرة ما كنت لاحصل عليها لولا توصية ناظر العرائش . . . لقد شاهدت حجرات أشد رطوبة من حجرتي ، وتأثرت يوماً لطالب رأيته يختفي داخل جحر مظلم أشبه بجحور الفئران .

أهكذا يعذب الطالب ؟ بل هكذا يعامل الانسان في القرن العشرين ، لقد سمعت يوماً ان طالباً من (أصيلا) قد توفي متأثراً بمرض السل الذي أتى على رئتيه ، وسمعت ان طالباً من « تاركيست » بالريف قد عثر عليه ميتاً بجانب مجمار متقد داخل مسكنه المقفل .

كان بودي ان أنطلق وأستمتع بجمال الحياة خارج المدرسة ، كان نداء خفي في أعماقي يستحثني لأن أغتنم ربيع شبابي ، لقد دعاني يوماً زميلي « المنصوري » الى زيارة حي الطلعة ، وما كنت أدري ماذا يريد صاحبي . . . قال لي : ان أشياء جديدة ستسعدني وبالفعل صاحبته الى « الطالعة » ترى ماذا رأيته وأنا أجتاز زقاقاً قذراً ملأته الازبال وروائح البول ؟ شاهدت رجلا يعابث مومسا صبغت وجنتيها المعروقتين بلون أحمر فاقع كان هذا هو مكان البغاء الرسمي ، وهممت بالعودة وأنا أنفجر بالغضب ، لكن صديقي أكد لي : انه من العبث ان نهرب ونغضب من غير ان نقضي (الحاجة) .

وعند منحنى الزقاق رأيت في باب مدخل دار مومساً يظهر عليها ومن ملامحها أنها في الاربعين من عمرها ، وشعرت بيد صاحبي تدفعني بقوة الى أحضان المرأة التي أسرعت بدورها الى عناقي ودفعي الى مدخل الدار وتلك كانت كأسي الاولى بتطوان ولا أكتمكم ان الندم ساورني بسرعة ، فعند ما ينتهي

أحدنا من ممارسة عملية الحب مع مومس يجد نفسه تغوص في أعماق السأم .

لقد نصحني صديقي المنصوري انه من أجل ان يحافظ الشاب المراهق على صحته وحتى لا يمرض « بحب الشباب » لا بد له من مضاجعة امرأة في كل شهر على الاقل ، ونسي صاحبي وهو يسدي لي هذه النصيحة ان بعض زملائنا مرضوا بالزهري ، ونقل أحدهم الى مستشفى سانية الرمل نتيجة المضاجعة . والعجيب ان دروس النحو والفقه تثير هيام المراهقين من الطلبة ، فأستاذ النحو يبدأ مثلا في استعراض الاسماء الخمسة وهي : أبوك وأخوك وحموك وفوك وذومال ، ثم يضيف قائلا :

وأسقط المؤلف « هنوك » وهو كناية عما يستقبح كالفرج ، وفي دروس الفقه يكثر الشيخ من الحديث عن الودي والمذي والمني في باب النكاح ، واذكر ان طالباً من قرية بن يونش « بأنجرة » القريبة من سبتة ، كنت أرى صدغه يقطر عرقا وهو يستمع الى شروح الشيخ ، وعلق على هذا المشهد زميلي الحوزي قائلا : ان الطالب الانجري شوهد مرات كثيرة وهو يعبث بعضوه التناسلي داخل حجرته بمدرسة لوقش وذلك من خلال ثقب صغير بالباب .

كانت هذه هي الحقيقة ، وحاولت مرات ان أتحدث عنها بصراحة ، لكن الجدار الرهيب كان يقف بالمرصاد دائماً ، فأنت

قليل الحياء اذا أنت ناقشت مع شيخك بعض القضايا الجنسية التي تعرض لها القرآن الكريم في أكثر من سورة ، وأنت لا تعرف الحشمة اذا قلت تسأل شيخك مثـلا عن معنى قول امرأة العزيز ليوسف عليه السلام : « هيت لك » خلال تفسير سورة يوسف .

كان التزمت الشديد طابعاً تقليدياً ، يمسك بخناق المجتمع .. والخرافات والشعوذة والاوهام تسيطر على مصائر الناس ، كان أدعياء الدين يتبجحون بقدرتهم الخارقة على كشف أسرار الغيب ، وأصحاب الطرق والزوايـا وأتباعهم يسيرون في استعراض أمـام قصر « المقيم العـام » ، وهم ينفخون في الابواق ، ويدقون على الطبول ، تتقدمهم عشرات الاعـلام البيضاء والخضراء والحمراء والصفراء ، لفت كلها حول رماح طويلة مثبتة على رأسها كرات من النحاس الاصفر .

كنت أظل مشدوهاً أمام هذه المظاهر وأتعجب من منظـر الجمهور وهو يصفق ابتهاجـاً ، بينمـا الحقيقـة المروعـة لا ينتبه لها أحد .

كان البؤس يخيم بكلكله الاسود على البلد ، فالمتسولون ينتشرون في كل مكان ، وقد مدوا أيديهم المعروقة بالسؤال ، وفي شارع (السوق الفوقي) تمتد صفوف طويلة من الشباب العاطل جاءوا من القرى المجاورة للبحث عن لقمة خبز .

ومع أن باب التطوع في جيش (الكاوديو) كان مفتوحاً على مصراعيه . فان هذا لم يؤثر قليلا ولا كثيراً في الحالة المزرية التي كان يعيشها الشعب .

كانت بلادي ممزقة الاطراف . . فهناك المنطقة الداخلية وهنا المنطقة الخليفية . . . ويسمون طنجة بالمنطقة الدولية ، كان وطني أشبه ببقرة تناولتها السكاكين من كل جهة ليقتطع منها أصحابها ما يشاؤون .

هـذه الاشياء وغيرهـا شغلت بالي حتى في الاوقـات التي أكون أثناءها منصرفاً الى دروسي التقليديـة بالجامـع الاعظم اذكر يوماً سهرة جمعتني مع مجموعة من الزملاء ، ودار الحديث بيننا حول حالة البلد ، فقال أحدهم وهو النجل الاكبر لقائد قبيلة الاخماس : من المؤكد ان تنعم علينا اسبانيا بالاستقـلال ، وعلق زميل آخر على هذه العبارة قائلا : نعم عندك الحق . . (فالكاوديو) أعلن ان زهرة النصر سيقطفها المغاربة ، وتحمس آخرون لهـذا الوضع ، وبادرني أحد الزملاء :

ـ لماذا نراك غارقاً في صمتك . . ؟

كان زملائي ينظرون الى وضعية البلد من خلال المظاهر التي تطفو على السطح ، ورب كلمة أعلن عنها مذيع في البوق المثبت فوق عمود بساحة الفدان تكفي لحملهم على إعلان رأيهم بالصورة التي سمعتها . . لا أدري هل يدركون ان الاستعمار

يجثم على بلاد شاسعة الاطراف في افريقيا وآسيا . . . وأنه أشبه بالاخطبوط الذي لا يفلت ضحيته الا بعد ان يستنزف منها آخر قطرة من الدم .

واذ كنت مضطراً الى الخروج عن صمتي وإبداء رأيي ، فقد قلت لزملائي . وأنا أتأمل مختلف الانطباعات المرتسمة على ملامحهم :

رأيي بصراحة هو انه لا اسبانيا التي تسوق أبنـاء المغرب الى ميادين القتال ، ولا فرنسا التي تلتهم خيرات بلادنا ، مستعدتان للاعتراف بحريتنا واستقلالنا . . ان الشخص الوحيد الذي فهم هذه الحقيقة وعمـل بحسابهـا هو المجاهد عبد الكريم الخطابي يـوم أعانها حرباً شعواء على المحتل في الجنوب والشمال .

وقاطعني أحد الزملاء :

ـ لكن عبد الكريم الخطابي فشل في حربه التحريرية

ودمدم رفيق آخر برأسه

كان من الصعب علي ان أشرح الظروف التي جعلت عبد الكريم الخطابي لا يجهز نهائيا على جيش الاستعمار بعد معركة أنوال ، خصوصاً وان أحد من كنت أتحدث معهم حصل أبوه على رتبـة « قبطـان » في الجيش الاسباني بفضل مواقفـه ضد المجاهدين في الجبل والريف ، وخيانته لهم ، بل سمعت ان أحد

الخونة سرق قطعة حديدية في شكل مفتاح من المدفع الذي كان يقذف بحممه ثكنات العسكر في ضواحي تطوان ، وتقاضى الثمن مضاعفاً ، وفاء على إخلاصه للدولة الحامية التي أنعمت عليه برتبة ضابط .

وسادتنا لحظة صمت قصيرة سرعان ما قطعتها أصوات يبدو ان أصحابها لا يريدون الخوض في السياسة . . وتردد اسم الله شجياً حنيناً يبعث الدفء في النفوس .

كان الله هو ملجؤنا الوحيد حتى في سهراتنا الخاصة . . كنت ترى الطلبة وهم يطرقون برؤوسهم وكأنهم في مناجاة صامتة . لم يكن هناك أي فرق بينهم وبين إخوانهم في قرية « الصخرة » كانوا تقريباً من طينة واحدة تجمعهم غاية مشتركة ، ومع ان تطلعاتهم الى المستقبل باهتة ، فقد كان من بينهم من يتوق الى غد أفضل ، ينعم فيه بالكرامة . ان أسرهم وذويهم وعائلاتهم في القرى القريبة والنائية . . يقاسون الاهانات من المراقبين الاسبان . . الذين نصبوا أنفسهم حكاماً ، يمسكون بقبضة يدهم رقاب المواطنين ، ولا يتورعون من توزيع كميات السكر والزيت على الجواسيس المنبثين في كل مكان ، بينما يحرمون الاحرار من قطعة صابون . .

● ● ●

وحلت أعياد النصر ، وتناقلت أبواق الراديو المنصوبة في ساحة الفدان خبر زحف (الكاوديو) على آخر معقل من معاقل الجمهوريين في اسبانيا بمساعدة هتلر وموسوليني ، وطافت فرق الكتائب في شوارع تطوان ، وأطلقت المدافع طلقاتها من برج القصبة ، وخرجت الجماهير الى الشوارع لتصفق للاستعراضات . كان طلبة مدرسة لوقش هم الآخرون يشاركون مواطنيهم في التصفيق بيوم (النصر) وعلق أحد أعضاء الحزب على هذه البادرة قائلا : ان زهرة النصر ستقطف قريباً .

وفي الايام التالية بدأنا نشاهد مواكب الجنود وهم يعودون من ميدان الحرب باسبانيا فكان الشعب يستقبلهم ويرحب بهم ويحيي فيهم البطولة والشجاعة . ومن فرط اللهفة على الجديد ترقبنا زهرة النصر التي تحدث عنها (فرانكو) والتي كان البديل الحقيقي لها هو تعيين مقيم جديد هبت الى استقباله جماهير غفيرة بشارع النخيل . وهكذا ظهر المفوض الاسباني (أوركاص) بوجهه المنتفخ ، وصدغه البارز ، وكرشه العريض وهو يستعرض فرقاً من جيش المفيف .

كان الطقس حاراً ، والجماهير تتدافع بالمناكب ، وتقف في صفوف طويلة لتتملى بمشاهدة الاستعراض ، ولست أدري كيف راودني في ذلك الحين شعور بالذلة في ظل احتلال سافر لبلادي تدل عليه هذه الدبابات العتيقة والمدافع ، ومع اني كنت

أحس بحب عميق تجاه شباب وطني المجندين في جيش الاحتلال ، إلا أنه مع ذلك كنت أرثي لحالهم وهم يحملون في المقدمة علماً اسبانيا

وعند ما انتهى الاستعراض بدأت تعاليق المواطنين . . فمن قائل : إن الاستعراض كان هزيلا . ومن قائل : إن الاستعراض رائع ، وعقب مواطن ينتمي لحزب الاصلاح الوطني قائلا : إن زهرة النصر قد تحولت بمقدم (أورڭاص) الى شوكة في حلق الشعب ، وأردف شخص كان يمشي بخطوات سريعة : الغاية من الاستعراض إرهاب الوطنيين ، وإفهامهم بأن عهد « السياسة » قد انتهى .

كنت أستمع إلى هذه الاصوات ، وفي الوقت نفسه عشت مع الواقع مجرداً من كل تزويق أو تنميق ، كان الفقر يطل بملامحه القاسية من خلال عيون الارامل الذين فقدوا أزواجهم في ميادين الحرب باسبانيا ، كن يحملن بين أذرعهن أطفالا صغاراً لا يعرفون عن آبائهم شيئاً .

وعدت الى حجرتي بمدرسة لوقش لأجد عشيري عبد السلام العروسي ، منهمكاً في إعداد صحن البطاطا ، رأيته ينفخ على الفحم الذي لم يشتعل بعد . وتطايرت سحابة من الرماد من المجمار لتستقر فوق لحيته الكثة . وعند ما سألته عن سبب غيابه لحضور العرض العسكري زمجر في غضب :

ـ كلاب ملاعين .

كان رفيقي العروسي لا يطيق مشاهـدة مناظر تؤلمه ، وتحز في نفسه ، لذلك فضل الاشتغال بوضع شطائر الطماطم في صحن على مشاهـدة الاستعراض . وتعاقبت الايـام بل الشهـور ، ورتابة حياتنـا كطلبـة لا تبـديل فيهـا ولا تغيير . ففي شارع « المطامر » يشاهد الطلبة جماعات وأفراداً يترددون على الجامع الكبير ـ المعهد الديني ـ وقد وضع أحدهم على رأسه عمامة من الثوب الابيض . . بينما يكتفي آخرون بوضع جزء من الجلابة الصوفية على رؤوسهم بيد ان بدعة جديدة كانت قد بدأت في الظهور والانتشار آنـذاك بين المواطنين وهي لبس الطربوش الوطني ذي الحبات الصوفيـة الصغيرة باللونين الابيض والاسود ، وقد أقبل الكثيرون من الناس على لبس هـذا النـوع من الطرابيش . . مع نوع آخر من الطرابيش الحمراء « التركية » .

إنه لمن الصعب علي جداً ان أسجل بكامل الأمانة والدقة ظروف الحياة التي كان يعيشها مجتمع تطوان ، فهناك أشيـاء اكتشفتها ولمستها رغم أني لم أكن شديد الاحتكاك أو الاتصال بعائلات تنظر الى هؤلاء الوافدين على تطوان بحذر شديد ، وإنك لتسمع كلمات : آلجبلي آذاك الريفي يلوح بها صاحب متجر عجوز بشارع « الترانكات » في وجه طالب قادته رجـلاه الى الحانوت بقصد شراء أوقية من السمن الحار ، ومع أن تطوان مدينة صغيرة

إلا أن عنصرية ضيقة تشتمها دون ان تعرف دوافعها وأسبابها . وهذا هو ما حدث بالضبط عند ما شبت الصراعات الطبقية بين الجماعات السياسية ، وكان الاستعمار بوسائله يشجع هذه الجماعات أو تلك لتستفز بالجماعة الاخرى ، ولقد امتدت هذه العصبية الى شؤون الزواج والمعاملات ، فالتطواني مثلا قد يتردد طويلا قبل أن يوافق على تزويج بنته من « جبلي » أو « ريفي » ولست أدري ما هو السر في هذه الظاهرة العجيبة ؟

لقد عرفت عن قرب نفسيات أهل تطوان ، فهم يتمتعون بحساسية مرهفة يحرصون على ترتيب أشيائهم الخاصة بمنتهى الدقة والنظام ، سواء في البيت أو في الشارع ، وتنتشر حولهم إشاعات كثيرة حول أسلوب معيشتهم ، وتقتيرهم على أنفسهم وخضوعهم الى وسائل اقتصادية شديدة . مما جعل الوافدين على المدينة الصغيرة ينعتونهم بالبخل ، وأصبحت قهوة « الدحمان » الشعبية مكاناً تحوم حوله الحكايات ، ومنها أنك قد لا تلتقي فيه مع صاحبك الذي دعاك لتناول طعام الغذاء أو العشاء معه في بيته .

ويتحدث الناس عن قصة أحد أغنياء المدينة الذي طلب منه صديق حميم له ان يقرضه مائة ريال . « حسني » ، فما كان منه إلا أن صفق لخادمته ، وطلب منها أن تأتيه بالاكياس الصغيرة المحشونة بالريالات الفضية ، وأقبلت بها الخادمة ووضعتها أمام سيدها ، هذا بينما الصديق ينتظر في لهف ، ولعابه يسيل على

المائة ريال . وفي هذه اللحظة أمسكت أصابع الغني ريالا حسنياً ، ثم جعل يمعن فيه النظر حيناً ويتحسسه بيده تارة وتوهم الصاحب أن صديقه سيبدأ بعد الريالات ، والبدأ بتسليمها له على وجه السلف ، لكن حدث أن الرجل قذف بريال فوق الارض فكان له رنين شديد ، وهنا قال الغني لصاحبه الذي عقدت الدهشة لسانه :

ـ هل تعرف ماذا يحكيه الريال . . . ؟

وتمتم الصديق مستغرباً :

ـ لا . . لا أعرف .

وأبرقت عينا الغني الوجيه وهو يمسك بقطعة النقود وقال :

ـ هذا الريال يا صاحبي نطق بحكمة بليغة أثناء ارتطامه بالارض . . والحكمة تنصحني هكذا : « جمعناك كداً . وأعددناك عداً ، وان خرجنا من يدك اليوم فلا نعود غداً » . . . وكان يرفق نصيحته بحركات من يده ، فعن كلمة « كداً » يضع راحته على صلعته كعلامة على الشقاء من أجل جمع المال ، وعن كلمة « عداً » يبدأ في تحريك أصبعي السبابة والابهام كعلامة على عد الفلوس .

وحملق الرجل فى وجه صديقه الذي استأنف موعظته قائلا :

ـ من أجل هذه الحكمة لا يمكنني أن أقرضك مائة ريال . .

سمعت حكاية الريال الحسني . . ولا أدري هل هي من نسج الحقيقة أم من صنع الخيال . . ؟ وإلا كيف يمكن أن أتصور غنياً كبيراً يبخل على أعز أصدقائه بمائة قطعة من الريال الحسني على وجه السلف .

إن الناس في كل مكان يحلو لهم التنذر والتفكه ، ومن فينا لم يسمع بالاساطير العجيبة عن بخل الاسكتلنديين ، ومثل هـذه الحكايات تجد مجالا خصباً في أذهان بعض الذين يعجبهم التنذر والتفكه في مجالس السمر ، ويحولون الحبة الى قبة .

لقد عرفت أصدقاء عديدين في تطوان وكنت أزورهم في بيتهم ، وأكرموني كطالب غريب عن البلد ، ولم ألمس شيئاً من هذا الكلام المبالغ فيه ، عن نوادر البخل ، ترى هل يجهل الناس فوائد الاقتصاد ومساوىء التبذير والاسراف ، وكيف ينعكس ذلك على حياتهم ومعيشتهم ؟ الا تكون هذه الاشيـاء هي نقطة الخطأ في الحكم على أهل تطوان . . ؟

● ● ●

وفي غمرة جو خانق ، زادته كآبة أفواج المعطوبين العائدين من ميادين القتال في اسبانيا ، انطلقت صرخات الاطفال وهم يلوحون في ساحة الفدان بجريدة الاخبار . . بينما مـآت الايدي تتخاطفهـا ، ودهشت من إقبـال الناس على شراء الجريدة بهـذه

اللهفة . . فماذا حدث ؟ والفت نظري عنوان بارز بالخط العريض على الصفحة الاولى :

قامت الحرب .

ولم أهتم بتفاصيل الخبر . بل تابعت طريقي الى أقرب مقهى . . وهناك جلست أفكر في هذه المأساة الجديدة . فبالامس كانت حرب صغيرة عانى من ويلاتها شعب واحد يرتبط أبناؤه بوشائج الدم والقرابة . . واليوم تنشب حرب بين دول شديدة البأس والقوة في اوربا . وكان على مقربة مني شيخان عجوزان يقهقهان في صخب وهما منهمكان في لعب « الضامة » وعلق أحدهما على الخبر :

ـ هذا هو « ألمان » يا صاحبي .

ثم تناول بيدقاً ، ووضعه فوق زاوية مربعة وهو يهتف صائحاً :

ـ « هتلر » هو اللي غدي يغلب

والحرب عند ما تنشب لا تخطر مطلقاً في بال الناس أهوالها ومضاعفاتها الخطيرة على العيش والاقتصاد معاً ولم ينتبه أحد الى الصفوف الطويلة جداً من النساء والاطفال والشيوخ ، وقد استندوا بظهورهم على الحائط في انتظار صاحب الدكان المكلف بتوزيع مواد التموين ، بواسطة بطائق خاصة توزعها السلطة على الاهالي .

قد لا تتعجبوا اذا عرفتم ان هناك من جاء قبل الفجر ليأخذ مكانه في مقدمة الصف ، وقد تستغربون اذا قلت لكم

بأن صاحب المتجر يبيع البيض . وفي جهات أخرى مثل «السوق الفوقي» «والعيون» انتظمت صفوف طويلة أخرى جاء أصحابها في منتصف الليل، حتى يحصلوا على كيلو واحد من مسحوق السكر !الأحمر . . وأذكر أن زجالا شعبياً كان يرسم بصدق صورة باهتة لحياة السكان وعيشهم القاسي وهو يطوف بالأسواق منشداً :

سنيد الحمرا تشعل كيف الجمرة

والبيضات بالفيلا . المادة هي اطويلا

كان هذا الزجال الساخر يلقب بالفقيه «الشباكية» يلبس عمامة خضراء ويرتدي قفطاناً من الملف الأحمر. كانت أزجاله نقداً مراً وسخرية لاذعة لإجراءات التموين، رددها الناس في مجالسهم. وتغني بها الأطفال، وتصايحوا بألحانها في الأزقات والشوارع. ولعل اطلاق لقب «الشباكية» عليه يرجع الى افتتانه الشديد بالتهام هذا النوع من الحلوى التي تزدان بها الموائد في رمضان. وبائعوا الحلوى أنفسهم لا يبخلون على الفقيه فيناولونه من الحلوى الشهية الطرية ما يريد، مقابل الاستماع الى أزجاله في مدح «الشباكية» المغربية، وقد سقط هذا الزجال يوماً صريعاً على مقربة من مطار المدينة، عندما أطلق عليه الرصاص أحد الجنود الاسبان المكلفين بحراسة ثكنة عسكرية .

كانت مواد التموين تشمل الخبز والسكر وزيت الشحم، ومن الصعب عليك أن تبتلع قطعة صغيرة من الخبز، بسبب مرارتها، كما أن تناولك السكر الأسود يجعلك تنهش جلدك ولحمك، ويسبب لك الحكة التي تتحول مع الايام الى دمامل وبثور، ومع ذلك كله فان هذه المواد تباع بواسطة كناش صغير يسمونه « اللبريطا » تصحبه معك الى صاحب المتجر، فيقطع منه قسيمة صغيرة في منتصف كل شهر .

وفي ساحة المدينة بالفدان كانت المقاهي تفتح أبوابها في الفجر، وتظل الى منتصف الليل غاصة بزبنائها من المعطوبين، والوافدين على المدينة من الجهات القريبة .

وإنه لمنظر عادي تماماً ان تشاهد حلقة صغيرة تتكون من أربعة أو خمسة أشخاص جلسوا يحتسون كؤوس الشاي المعد بالسكر الأسود كانت أحاديثهم ومذاكراتهم تدور حول الحرب المشتعلة في أوروبا، ولمن تكون له الغلبة في النهاية ؟ كان بعضهم متحمساً لهتلر، ويدعمون حماسهم هذا بكون « هتلر » يناصر شعب فلسطين . . . وكانت طبقة الشباب والمثقفين تجتمع في نادي «جمعية الطالب» بينما ضباط الجيش الاسباني يجتمعون في النادي الاسباني وقد تزينت صدورهم بالنياشين والأوسمة .

وهناك صنف آخر من الناس يتحلقون حول «السي امفضل» الذي يرتدي جلابة متسخة تنبعث منها روائح كريهة، فكنت

تراهم مطرقي الرؤوس لا تكاد أعينهم تحدق في الرجل الـذي لـم يكـن ليتردد في صفع هـذا أو ذاك، أو يـركل أحدهم بقـدمه ويلقيه أرضـاً.

وجماعة أخرى تتركب من الحمالين والشباب العاطل تلتف حول «السي محمد هاها» وهو شخص بدين جدا، جميل الملامح، أبيض البشرة، يبدوا منشرحاً كما لو أنه طفل بريء، وقد انطلق به أصحابه محمولا فوق عجلة لحمل الاثقال في اتجاه إحدى قاعات السينما، وبين حين وآخر يبدأ في ارسال صيحات داوية: ها . . . هـا . . . هـا . وشخص آخر لـم يكن يتردد كثيراً على ساحة الفدان، وإنما يقضي طول وقته في سوق الخرازين المفضل عنده كان يبدوا مكتحل العينين، يرتدي قفطاناً طويلا يلامس الأرض، يتجمع الأطفـال حولـه ليستمعوا الى كلمات الشتائـم والسباب، ويصرخ في وجوه الناس المحيطين به: اللعنة عليكم . . . انظروا إلى اليهود الـذين يذبحون نبيكم . . قـوموا لتشهدوا اليهود يحرقـون قبلـة المسلمين، ثـم يتوعد الجمهور قـائلا، ورشـاش البصاق يتطاير من فمه:

سيذبحكم اليهود في « الملاح » سترون أيهـا الكلاب.

وحاولت بدون جدوى أن أدرك سر هـذه الظاهرة في مجتمع صغير متخلف وقارنت بين هذه الصورة وصورة موسم سيدي عثمان، وبدا لي أن ذلك يرجع الى تفشي الأمية والجهل من جهة، وإلى فراغ العقول من جهة . . .

قد تتساءلون عن لون الحياة التي كنت أعيشها وما هي مغامراتي العاطفية وأنا في أوج الشباب وقمة المراهقة . . ؟ والواقع أنني كنت مهتماً أكثر بتسجيل وكتابة مذكرات في دفتر خاص كل أربعاء، ومع أن زملائي في « مدرسة لوقش » كانوا يجدون في الحديث عن مطاردة النساء في الشوارع نشوة كبرى، فقد كنت أرى في ذلك مضيعة للوقت في غير طائل، كان رفيقي الغماري ينصرف أثناء الدرس، فجأة وبدون اعتذار من أجل موعد مع امرأة في «روض العشاق» ويبالغ أحياناً في ارتداء أجمل ملابسه ليبدو متأنقاً وهو يخطر في الشارع .

كان هذا النوع من المغامرات لا يعجبني اطلاقاً . . كنت في الحقيقة أنشد حباً بريئاً يهز مشاعري، ويسيطر على إحساسي . . . إن كنزة بنت خالي في العرائش كتبت لي أخيراً رسالة تقول فيها :

- إني في انتظار عطلة الصيف، وستعود قريباً لأستمتع بقربك مني. إن حبي لك كبير كالمحيط الذي تغسل أمواجه صخور مدينتنا، وفي القريب ستغمر هذه الامواج جسدينا على الشاطىء . .

كانت ابنة خالي تصغرني بسنتين. فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، ومع أنها لم تكن جميلة جداً إلا أن حيويتها ومرحها ونضوجها الفكري، كل ذلك أضفى عليها شخصية جذابة. لقد كانت

أيـام طفولتنا ممتعة. كنا نلعب معاً أو نقرأ في «الكتاب» القريب من سوق المدينة عند الشيخ الحمزاوي الـذي كان يحفظ القرآن الكريم بسبع قراءات

كان الشيخ قاسياً مـع الأطفال لدرجة أن يديه لا تنفكان من التهديد بقضبان السفرجل، ويلوح بهـا في الفضاء، وقـد تنزل كالسوط الموجع على رأس طفل أو طفلة، ولا يتردد من استعمال «الفلقة» لكل من تسول لـه نفسه العبث والغش، ما أبهجه وأسعده وهـو يعطي أوامره للولـد الكبير الملقب بهتلر ليقوم بتركيب «الفلقة» في رجلي طفل لم يحفظ لوحه .

وعند العصر كان شيخنا يستسلم الى نـوم عميق، لكن مـع ذلـك كانت إحدى عينيه تظل مفتوحة قليلا حتى يطل من خـلال كوتها على الشياطين العـابثين بخيوط الحصير . وفي أيـام القيظ الشديد كان يأتي بخيارة لا يلبث أن يشطرها قطعاً قطعاً، ثم يلصقها برأسه وصلعته وجبهته، وكنا نضحك لهـذا المشهد بعد أن يحجب كلانا وجهه باللوح

كان الشيخ الحمزاوي يعيش من مدخول قليـل يتسلمه من آباء الاطفال يومي الاثنين والاربعاء، وفى أيام الاعياد، وأثناء حفلات « الختمة » التي يقيمها الـآباء لابنائهم احتفاءاً واحتفالا بختم وحفظ ستين حـزباً من القرآن الكريم . كان يتلقى الهـدايا السخية والمكافآت المادية من لدن عائلات الأطفال المحتفى بهم، وإذا كان

الأب ميسور الحال فإنه لن يتردد في شراء وذبح بقرة سمينة، ثم ينظم حفلة بهيجة يستدعي لها الاحباب والاصدقاء، ويحضرها الاطفال ويوزع فيها الطعام والكسكس على الفقراء، وخلال ذلك يحاط الشيخ بهالة من التكريم والاحترام، وقد تأثرت مرة لمشهد طفل أقام له والده العامل في شركة «لوكس» حفلة عزف فيها جوق موسيقى نوبات أندلسية. كانت أنسام ماء الزهر وأريج العود تملآن الغرف، في حين كان الحاضرون يدخلون أفراداً وجماعات، والأب يرحب بهم، والى جواره ولده عمر الذي يرتدي جلابة بيضاء وسلهاماً فضفاضاً، وانطلقت الزغاريد لتزيد جو « الختمة » بهاء وجمالا، وأذكر أن والدي الذي كان ضمن المدعوين قال لي وعيناه تتألقان : كم أتمنى يا ولدي أن أحتفل بك يوم تختم القرآن، وقد أثرت في كلمته، فأقبلت على حفظ القرآن بعد أن التزمت أمام الشيخ الحمزاوي باستعدادي لحفظ ثمن حزب كل يوم، الشيء الذي جعلني أسابق الزمن، وأحقق أمل والدي.

وكانت «ختمتي» رائعة. ورأيت السعادة والفرحة في عيني والدتي التي بكت من شدة التأثر في حين كان الوالد مزهواً باستقبال أصدقائه.

وفي فناء البيت كان جوق أندلسي يطرب الأسماع بنوبات رصد الذيل، والاستهلال، وشاهدت فتيات يحطن ببنت خالي كنزة إحاطة السوار بالمعصم. كانت تبدو مشرقة الاسارير، شعرت نحوها أنئذ بحب صغير ملأ وجداني.

إنها طفولتنا ببراءتها وفطرتها، طفولة مترعة بالأمل.. وها هي ذي كنزة في انتظاري بالعرائش لنقضي أياماً من صيف سنة 1942.

وحزمت حقائبي، وسافرت الى العرائش، كانت أطياف بهيجة تخفق حولي وأنا أعانق والدتي التي فتحت ذراعيها لاستقبالي كما لو كنت طفلا مدللا عزيزاً الى قلبها، سألتها عن والدها، فترددت برهة، وبدا شحوب خفيف ملأ قسمات وجهها المتغضن، وحاولت جاهدة اخفاء تأثرها عني، بيد أنني سرعان ما استفسرتها مستعجلا :

- أمي . . . قولي لي أين ذهب الوالد . . . ؟

والقت علي نظرة مشوبة بالعطف والحنان . . . ثم أجابتني :

- والدك ذهب لحفلة كتابة عقد قران، وانك لتعلم يا ولدي أن كنزة بلغت سن الزواج، ويعتزم خالك تزويجها للمختار الساحلي محتسب المدينة، لهذا تقرر فجأة الاحتفال بعقد قرانها اليوم.

كانت احدى نوافذ البيت مفتوحة تشرف على المحيط الكبير، فقدمت بخطوات متعثرة في اتجاه النافذة كما لو أصابني الدوار، وتأملت زرقة السماء والبحر معا، واندفعت زفرة عميقة من صدري ثم توجهت لوالدتي قائلا :

- أتعلمين أيتها الام حبي الكبير لكنزة . . . فكيف يتصرف خالي بهذه الطريقة . . . هل لكوني لست محتسب المدينة ؟ . .

وخفضت رأسها، وحبست دموعها، وقالت تجيبني بنفس الحزن الذي شعرت به .

ـ اعلم ذلك يا ولدي، لكن خالك . . . قال انك لا تزال طالباً، وأمامك سنوات طويلة من الدراسة في القرويين . . وسن كنزة يناهز تسعة عشر ربيعاً

كنت لحظتها أتأمل زورقاً بعيداً يخترق اليم. ان وخزاً حاداً أحس به. أيكون ذلك خفقان في القلب . . ؟ لا أدري . . هذه أنفاسي تتلاحق، وأغنية مجهولة يشذو بها صياد سمك تكاد الامواج الهائلة تغمره. لقد أحببتك يـا عزيزتي منذ عهد طفولتنا، وتناجينا بهمسات حبنا في الليالي القمرية وزورقنا ينساب في واد « لوكوس » . كانت أصابعك متشابكة بأصابع يـدي، وعند مـا كنت أضغط عليهـا أجد لذلـك سعادة أعجز عن وصفها، لن أنساك وأنت تقولين :

ـ إذا كـان الحب الحقيقي معناه امتزاج روحي . فلماذا يحكم على المحبين بالانفصال عن بعضهما ؟

إنك قريباً ستكونين بين أحضان «المختار الساحلي» الرجل الذي ستخنقك أنفاسه، وتعبث أصابعه الخشنة بجسدك، وعند الصباح، يخرج من غرفة النوم مزهواً وقد حقق أكبر عملية غزو . . . لله مـا اتفه هـذه الحيوانات البشرية التي لا تعرف من الحـب سوى عبادة الجسد. كانت قبلاتنا بمثابة لقاءات تنقلنا الى جنتنا

الطاهرة الـوارفة الظلال ، صدرك الناهد كان بمثابة قطعة غالية أشفق على أن يعبث بها إنسان لا يحبك بمثل القوة التي أحبك بها.

إن الأناشيد والأهازيج والمواويل التي يصدح بها الصيادون وهـم يخترقون بمراكبهم الصغيرة وادينا الرائع تبعث في نفس الآن شعوراً بالحسرة . . ذلك لانك أنت كنت تحبين الاستماع إليها مثلي، ترى كيف تكون مشاعري الحقيقية عند مـا يحين موعد «الملاقيا» حيث تقضي أعرافنا بأن أكون بين أهل العروس بقصد السلام عليك خلال زيارتنا لـك في اليوم الثالث الذي يلي حفلة الـزفاف . . . لا أبـداً ان أستطيع التحديق في شفتيك القرمزيتين اللتين كنت من خـلالهما أطل على روحك، كيف أسمح ليدي لتمتد بالسـلام عليـك ؟ كيف أمسك بأصابع يـديك المحضبتين بالحناء . . ؟ لا . . لا لا أقدر . . ولن أحضر . إن آلامها مبرحة تعصف بكياني ، هذا البحر الهادر يشهد على حبنا الكبير الـذي كان بحجم الامواج العاتية . همساتنا كانت على شاطئه، وهـا أنذا جئت من تطوان ، وكنت في انتظاري لقضاء فترات زاهية من عمر الـزمن على مقربة من الصخور المدببة المحفـورة

وكان صيفاً شاحباً مثـل وجهي، فبعد أن كنت آمل في قضاء أيام مترعة بالحب البريء الطاهر إلى جانب رفيقة طفولتي، إذا بآمالي تنهار ، وتصبح كنزة زوجة «المختار الساحلي» كنت

أقضي يومي تارة قرب صخور البحر الناتئة، كمن يترقب شيئاً قد يظهر فجأة في الافق البعيد، أو أمضي في الشارع الطويل بدون هدف ولا غاية وعند ما أعود إلى الدار بعد التاسعة أو العاشرة ليلا تستفسرني أمي في قلق واشفاق :

- ما هذا الشحوب الذي أراه على ملامحك ؟ ألا تشفق على صحتك من الانهيار ؟

كنت أرنوا الى وجهها، فأرى الطهر مجسداً، وأود لو ارتد بي العمر اعهد طفولتي، فألقي برأسي فوق صدرها المتفجر بحنان الأمومة، وتبادرني وهي تحبس دموعها :

- أراك هذه الايام كثير الشرود يا ولدي . . .

وحتى الأكل لم أعد أستسيغ مذاقه، بل تحول إلى طعام مر أتناوله بصعوبة، وخلال الليل لم يكن يغمض لي جفن، فكنزة بجواري، وعلى مقربة مني، رغم بعدها عني، همسها أسمعه، حتى لأخالها على قيد خطوات

قالت لي والدتي ذات صباح :

- إنك تردد اسم كنزة وأنت نائم . أكنت تهذي ؟ ؟

كان القيظ شديداً وسكان المدينة يهرعون إلى البحر أفراداً وجماعات، ومنهم من كانوا يفضلون قضاء الأمسيات في المقاهي والأندية لتناول المرطبات والمبردات، كانت المدينة

تعج بالاسبانيين ، والفتيات الاسبانيات يخطون في الشارع الرئيسي بالمدينة .

كنت أتعمد المرور في هذا الشارع وغايتي أن أنسى، لكن هل حقيقة ينسى المرء حبه الاول بمثل هذه السهولة ؟

أذكر أن فرقة موسيقية تونسية جاءت الى العرائش لاحياء حفلة ساهرة في المسرح، فكنت بين الذين أخذوا مقعدهم في « البرنسيبال » .

وحضر الحفل جمهور غفير، ومن الجانب الرسمي حضر باشا المدينة، وخلفاؤه وأعوانه، وفي مقصورة مجاورة شاهدت المحتسب يجلس الى جانب حرمه، وكانت ترتدي جلابة زيتية، وتضع على وجهها لثاماً : لم يعد يبدو من خلاله سوى عينيها اللتين طالما حدقت في بؤبئهما، وتسارعت نبضاتي، وأنا أستمع في نفس الوقت الى وصلة موسيقية يؤديها الجوق، ترى هل توحد لغة الموسيقى مشاعر الأحبة المحكوم عليهم بالفراق عن بعضهم . . . ؟

ذلك كان عزائي الوحيد في ليلة ساهرة، ودعت أثناءها حبي الوليد . . .

☆ ☆ ☆

ومضى الصيف، وخلا شاطيء البحر، كما لو أن كل شيء قد انتهى بالنسبة إلي، أنا الذي كنت أحلم، بل آمل في قضاء أسعد أوقاتي مع كنزة، وعدت الى حجرتي بمدرسة لوقش بأعصاب

مرهقة، وان الساعات الثلاث التي قضتها الحافلة في طريقها الى تطوان كانت قاسية علي، زادتها ظلمة الليل كآبة وتجهما، وان همسات ضابط اسباني شاب في أذن خطيبته، وكانا يجلسان على مقربة مني بعثت في نفسي آلاماً حـادة، وحاولت لحظتها أن أنسى ذكرياتي التي هاجت، لكن بدون جدوى.

واستؤنفت الدراسة بشكلها التقليدي، وجلس الفقهاء وظهورهم مسندة إلى سواري المسجد الكبير لالقاء دروسهم بينما تحيط بهم حلقات هنـا وهناك، يؤلفها الطلبـة في دوائر صغيرة وكبيرة.

لقـد ارتفعت أصوات كثيرة لاصلاح حالـة التعليم الديني وتحسين وضعية الطلبة، فالمنحة لـم تكن لتزيد على عشرين «بسيطة»، كما أن أماكن سكناهم قذرة، وفي الثكنة العسكرية القديمة (الاسقالة) التي تحولت الى مأوى لسكنى الطلبة، كثيراً مـا قضى مرض السل على حياة هذا أو ذاك، على أن هـذه الاصوات سرعان ما خفتت، لانها لم تكن صادرة عن إرادة وعزيمة، كنت أنظر الى العذاب الانساني الذي يعانيه إخواني، فألوذ بالصمت العميق، وهـم في نفس الوقت يضحكون سعداء رغـم شقائهم.

ولا أعتقد أنني كنت الوحيد الذي يدرك هذه الحقيقة. بل كان يشاطرني شعوري (الطاهر العروسي) الذي لم يتردد في إحدى السهرات التي يقيمها الطلبة مساء كل خميس، فقام واقفاً وارتجل كلمة قـال فيها :

عجباً لقوم يسهرون ويضحكون دون أن يلمسوا الحيف اللاحق بهم فان اخوانكم الزيلاشي والحساني والأنجري ألم يفتك بهم مرض السل بسبب رداءة الاكل والسكنى . . ؟ هلا ارتفعت أصواتكم باصلاح المعهد وتنظيمه . . ؟ هلا تضامنتم من أجل تحقيق هذه الغاية ؟

وهنا ارتفع صوت من أقصى المكان : وما هو الحل في نظرك يا لسي الطاهر ؟

وجلجل صوته مجيباً : الحل في نظري هو الاضراب والامتناع عن الدراسة حتى تحقق المطالب

وترددت لاول مرة كلمة الاضراب، وتهامس الطلبة دون أن يدرو مغزاها ومدلولها، كانت شيئاً جديداً يسمعون به لاول مرة وكان الطاهر العروسي متحمسا وهو يحثهم على التعاون والتضامن، وشاهدت بعض الطلبة يسرع في الانسحاب من السهرة، وسمعت طالبين في مناقشة حادة بينهما

ـ لم أفهم بعد معنى هذا الذي يدعو إليه الطاهر العروسي أجابه الثاني :

ـ يدعوك الى الاضراب .

ـ الاضراب ؟ وما هو الاضراب ؟

ـ الانقطاع عن الدراسة حتى تلبى الرغائب

وعاد يقول وهو يفرغ في جوفه بقية شاى :

ـ والله أن العروسي لأحمق . . كيف يمكنني الانقطاع عن الدراسة وأنا الذي شقيت وتعذبت من أجل الحصول على سكناي بمدرسة لوقش .

ثم رفع هذا الطالب عقيرته محتداً :

ـ لا السي الطاهر . . . لسنا موافقين أبداً على ما تسميه أنت بالاضراب .

وارتفعت أصوات تعلن معارضته وتهامست أصوات بتأييده، ومع أن الطاهر العروسي أحس بخيبة شديدة وهو يشيع بالصراخ والضجيج الا أنني أكبرت فيه شجاعته لتبليغ دعوته الى زملائه، والتي أصبحت مع الايام فكرة مقبولة تختمر في الاذهان.

وبدأت بالفعل الاستعدادات لتكوين لجان خاصة لتنظيم الاضراب ومقاطعة الدروس .

وفي جو من الحماس أعلن طلبة المعهد الديني إضرابهم الذي كان له صداه الواسع في مختلف الاوساط. وتوثب المخازنية بطرابيشهم المدببة الحمراء في لون الفلفل، فهجموا على مدرسة لوقش بقصد إلقاء القبض على المحرضين الداعين الى الاضراب، وساقوا عدداً منهم الى سجن الباشوية بالفدان. لكن ما أن علم زملاؤهم الآخرون بالخبر، حتى أسرعوا بأنفسهم الى الباشوية ليسلموا أنفسهم، وكنت تراهم زرافات ووحدانا يلتحقون بالسجن الذي غصت رحابه بهم، وتعالى ذوي أصواتهم بالذكر وتلاوة

القرآن، فكان مشهداً عجيباً تدل عليه ملامحهم ونظرات عيونهم المشرقة بالأمـل .

كانوا مستعدين لمواجهة عقوبة الطرد والفصل من المعهد وحرمانهم من المنحة. والتفوا حول الطاهر العروسي الذي أشرقت أساريره وهو يشجع هذا او ذاك، او يشرح مطالب الطلبـة التي تنحصر في ثلاثـة نقـط :

اولا : الزيادة في منحة الطالب من عشرين « بسيطة » الى إلى خمسة وسبعين « بسيطـة » .

ثانيـاً : إقامتهم في مساكن صحية .

ثالثـاً : اصلاح التعليم الديني وإدخال أساليب التعليم العصرية عليه.

مطالب بسيطة، بيد أنها كانت في منتهى الوضوح والبساطة، ولم تكن تجد صداها في النفوس بادىء الأمر لولا ان صـوت الطاهر العروسي نفذ شيئـاً فشيئـاً الى أعماقهم. فآمنـوا بضرورة الجهر بمطالبهم في العيش والسكنى والدراسة

واهتاجت سلطات الحماية للتحدي السافر الذي أعلنه طلبة المعهـد الـديني، وأقيـم اجتمـاع مستعجل حضـره المـراقب السياسي ومساعدوه وعمداء الامن بقصد اتخاذ اجراءات زجريـة في حق المضربين، لكن يظهر ان الاجتماع لم يسفر عن نتيجة. فالطلبة تربطهم وحدة قوية. ويعرضـون أنفسهـم علـى السلطات لتسجنهم، لذلك كان من العبـث مواجهـة هـذا التحدي بالقـوة،

هذا بالأضافة الى تأييد حزب الاصلاح الوطني لهم، كما ان التأييد الشعبي الذي لقيه اضرابهم جعل كثيراً من الاسر والعائلات تبعث لهم إلى داخل السجن موائد الكسكس وصحون السمن والعسل.

والتجأت السلطات الى سلاح آخر يعتمد على المراوغة ومحاولة تكسير الاضراب، وهكذا شجعوا بعض الافراد للحضور في الجامع الكبير بقصد الدراسة، وغايتها من وراء ذلك استدراج المضربين واحداً واحداً الى المعهد وحتى هذا الاجراء نفسه فشل في اليوم الاول من بداية تنفيذه، ذلك لأن لجنة الاضراب المتكونة من نخبة شديدة البأس، كانت تأخذ مكانها في الازقة والدروب الموصلة الى الجامع، ومن أربع زوايا، وقد اخفوا الهراوات والعصي تحت جلابيبهم للتهديد بها في وجة كل مأجور، وهجموا بالفعل على طالب كان ضمن الجماعة التي عهد اليها بمهمة تكسير الاضراب، فانهالوا عليه بالضرب الشديد، ثم بصقوا على وجهه بعد ان طرحوه أرضا.

وعمدت سلطان الحماية الى التنكيل بالطاهر العروسي وإرساله الى سجن « اللانشو » بسبتة حيث وضع في قبو بارد أشبه بالكهف، كما لو أنه ارتكب جريمة خطيرة ولم يزد هذا الاجراء التعسفي الطلبة الا إصراراً وعناداً في النضال، وكان تعليق أحد أساتذة المعهد الرسمي العصري على هذه الظاهرة :

– إن كنت أتعجب من شيء فانما أستغرب من قوة هذا

الوعـي بين طلبة يدرسون « ألفية بن مالك » و « مختصر الشيخ خليل» ولا أعتقد أنهم يعون شيئاً عن التنظيمات النقابية في العالم.

والواقع ان صمودهم كان مثـار الاعجاب، ومع انهـم لـم يكونوا يعرفون الاضراب كوسيلة نقابية مشروعة يؤمن بفاعليتها وجدواهـا العمـال والطلبة في كثير من البلدان، فان إضرابهم يـدل على شعور بالعـزة والحق.

وامتد الاضراب شهوراً وغادر طلبة كثيرون مقرهم بالمدرسة للعودة الى قراهم النائية في الجبل وفى أقصى الريف، وكاد اليأس يـدب الى نفـوس جماعـة من المضربيـن بسبـب تعـنـت سلطات الحماية، لولا الاصرار الذي أبـداه الطاهر العروسي حتى وهو في سجن « اللانشو » لقـد صمم على موقفـه كداعيـة الى إضراب مشروع. وتناقلت الاشاعات أخباراً مفادها ان جهات عليا في المدينة أعطت تعليماتها للمسؤولين للاستجابة إلى مطالب طلبة المعهد الديني، وإطـلاق سراح المسجونين وعلى رأسهـم الطاهـر العـروسـي.

وكان خبراً سعيداً طربت له الاسماع، واهتزت له القلوب، ولشدة فرح الطلبة. أقاموا سهرة بهيجة في الغرفة الكبيرة بالمدرسة احتفاء بالانتصار، وتحقيق المطالب الثلاثة.

☆ ☆ ☆

كانت الحرب قد امتدت الى عدة جهات في العالم، ونقل

راديو برلين بصوت يونس بحري إنهزام فرنسا وتراجعها أمام جحافل هتلر، وتوغلت قواته داخل الاراضي الروسية بينما في شمال إفريقيا كان القائد رومل يطارد قوات الحلفاء في صحراء العلمين، وقامت في تطوان مظاهرات صاخبة نظمتها مجموعات من المواطنين القادمين من منطقة الحماية الفرنسية، ابتهاجا باندحار الفرنسيين وسقوط خط « ماجينو » أمام هجمات القوات الهتليرية .

سارت المظاهرات من ساحة الفدان الى باب العقلة، وهجم المتظاهرون الغاضبون على بناية القنصلية الفرنسية وقد حملوا نعشا وضعوا عليه العلم الفرنسي، ويرمزون بذلك الى موت فرنسا ومصرعها الابدي، بينما كانت جماعات صغيرة تهتف : ماتت فرنسا . . . ماتت . .

كان مشهداً عجيباً أضفته الى مشاهد المظاهرات التي نظمتها سلطات الحماية الاسبانية إبتهاجا بانتصار فرانكو على خصومه. تعجبت من عقلية الناس الذين كانوا في الحقيقة يحلمون . . . فما هو يا ترى الفرق بين المانيا وفرنسا . . . ؟ هل ستعمد الاولى الى منح وردة النصر على حد تعبير « الكاوديو» الى المغاربة؟ هل حقيقة ان فرنسا ماتت كما هتف بذلك متظاهر غاضب قيل انه يتمتع بعطف القنصل الالماني بتطوان؟ ان الشعب الجائم في ساحة الفدان على كراسي المقاهي لم تهزه هذه

الاحداث إطلاقاً . . . كان منتشياً فقط باحتساء كؤوس الشاي الاسود، وتدخين السبسي، واستعمال مسحوق طابة، والتفتت جماعة حول الفقيه السعيدي الذي كان يقص عليهم كرامات الاولياء وخوارق الجن والعفاريت، بينما أحاطت جماعة ثانية بالسي امفضل الذي كان يضع على كف يده اليسرى (طابة) وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة، وأصاخ أحدهم بسمعه الى ما يقوله، وربما توقع ان يعلن عن « بشارة » مثلا أو يكشف ستاراً مغلقاً من أسرار الغيب

كانت أفواج المتسولين تنتقل هنا وهناك وهددت المجاعة آلافا من سكان الريف بسبب انحباس المطر سنتين متواليتين، شاهدت صباح يوم وأنا في طريق عودتي من المعهد الديني إلى مدرسة « لوقش » أسرة تتألف من أب وزوجة وأطفال صغار، وقد حملوا أواني الطبخ ومعدات الطعام وحصيرة بالية، كانوا يسيرون حفاة عراة في شارع المطامر بلا هدف ولا غاية، بدت وجوههم فاقعة صفراء بلون الزعفران، علمت أن كثيرين منهم لقوا حتفهم بسبب الجوع، ويتم العثور يومياً على جثث آدمية في مختلف أزقات المدينة وخاصة قرب « باب السعيدة » .

وفي محاولة للتخفيف من حدة هذه المأساة عمدت السلطات إلى حشر آلاف الاسر اللاجئة داخل خيام نصبت في ساحات خارج المدينة .

وفي المساجد كان الناس يتلون الدعوات ويطلبون الرحمة، ويقرأون اللطيف وعندما خرجت الجماهير لطلب الغيث من المساجد بعد صلاة الجمعة كانت تهتف: «اللهم اسق عبادك وبهيمتك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت» ورفعت بصري إلى السماء التي كانت تتوسطها كتلة نارية تشوي بحرارتها الارض والعباد، وتقدم الفقيه الزواقي محتفياً، وقد ارتدى جلابة مقلوبة والدموع تخضب لحيته البيضاء، أحاط به الاطفال الصغار الذين كانوا يحملون القدور الصغيرة، والاواني المملوءة بالماء، وجعلوا يرشونه، فيتناثر هناك وهناك، كما لو كانوا يستعجلون نزول المطر إن أصواتهم الملائكية وبراءتهم أضفت على الجمهور جواً من الخشوع والتأمل، وبالرغم من أنهم كانوا في قمة فرحهم وسعادتهم بالتظاهر في الشارع، ولا يعرفون شيئاً عن الاحزان والآلام التي يعانيها الناس بسبب الجفاف الذي أتى على الزرع والماشية معا ..

☆ ☆ ☆

كان محيطي الصغير لا يتجاوز حجرة السكنى في مدرسة لوقش، وعند كل مساء كنت أشتري جريدة الاخبار لاشرف من خلال سطورها على أحداث عالمنا الكبير، وهو يصطلي بلهيب الجحيم، فهذه المانيا الهتليرية تقول اذاعتها، انها مهضومة الحق، ولذلك اضطرت الى استعمال لغة المدفع، وتهب الدولة الفرنسية بدورها لتدافع عن أرضها ضد الغاصبين المعتدين،

وهي التي تحتل المغرب والجزائر وتونس وأجزاء كبيرة من أراضي افريقيا وآسيا، وفي المشرق والمغرب يمسك الاستعمار بخناق الشعوب العربية والاسلامية، أين الحق إذن ومع من؟ أسئلة تلاحقني فلا أجد لها جواباً، على أنني لا أنكر تأثري لمشهد صورة نشرتها الصحف والمجلات عن لقاء تم بين «ادولفو هتلر» ومفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني الذي التجأ الى ألمانيا فراراً من تعسف اليهود والانجليز أملا ان يجد لدى القادة الالمان كل تفهم وتأييد لكفاح الشعب الفلسطيني المكافح، ولعل كثيرين من الناس مثلي تأثروا هم الآخرون بكلمات التشجيع والتأييد التي عبر عنها الرئيس الالماني للزعيم الفلسطيني وتعاطفه مع آمال شعب فلسطين، وفي نفس الوقت كنت أبدي تأففي وامتعاضي من طبيعة العلاقات التي تجمع بين القطبين الكبيرين «هتلر وموسوليني» لأن هذا الاخير كان يصب نيران حقده على شعب ليبيا الذي قدم خيرة أبنائه الافداد وعلى رأسهم المجاهد «عمر المختار» فداء للحرية والكرامة.

أين مبادىء العدالة إذن في هذا العالم..؟ إن مآت الآلاف من الشباب في عمر الزهور يساقون الى الجحيم والنار بمجرد جرة قلم يخطها رئيس دولة وهو يعلن الحرب على دولة أخرى. إن الخطب الحماسية التي يلقيها «غوبلز» وزير الدعاية في ألمانيا من صوت برلين لتبعث على القرف، وفي قاعات السينما كنت أشاهد على الشاشة أهوال الحرب العالمية، وهزني

منظر شاب ألماني جميل التقاطيع والملامح، وقد سقط صريعاً بين الضحايا، ترى كيف حال أمه المفجوعة وهي التي علقت آمالها الكبار على شبابه الغالي؟ ما أحمق البشرية المتهالكة على ارتكاب الجرائم والشرور؟ بأي حق تخنق الدول الكبيرة حريات الشعوب الصغيرة في افريقيا و آسيا؟ لماذا ينكب العلماء على صناعة أسلحة التدمير والقتل ولم يدر بخلدهم البحث عن أحسن الوسائل لتثبيت دعائم الحرية والسلام ؟.

وقبل أن يبدأ الفيلم الاخباري في قاعات السينما بتطوان، كانت تعرض صورة «الكاوديو» المنتصر المزهو بنياشينه وأوسمته العسكرية ووجهه المتجهم، كان من المحتوم والملزوم على رواد السينما أن يقفوا تأدبا واحتراماً للبطل الذي قضى على «الروخوس»

كنا حقيقة نحس بالمذلة والخزي ونحن مضطرون الى الوقوف دقيقة صمت واحترام أمام صورة «فرانكو» او نقف بعد غروب شمس كل نهار في الشارع عندما يعلن النفير عن نزول العلم الاسباني من فوق سارية إحدى الثكنات العسكرية بالمدينة.

☆ ☆ ☆

وفي دنياي الصغيرة كنت أقضي أكثر الوقت، إما في تأمل صامت وعيناي مفتوحتان تنظران في السقف القريب، أو أتصفح كتاباً عقيماً وحفظ شروحه وقوافيه، ولولا أطياف تراود

مخيلتي بين الحين والآخر لخلت نفسي سجينة يعذبها السأم، وعبثاً كنت أحاول التركيز على ما أقرأ بالرغم من أن الامتحان قريب . . ولا بد من الاستعداد للجلوس أمام أعضاء لجنة الامتحان والاستماع الى أسئلتهم الشفوية المأخوذة من كتاب الشيخ خليل، وشروح ألفية ابن مالك، كان بعض أصدقائي في العرائش يكتبون إلي فابتهج لرسائلهم التي كانت تبعث في نفسي الأمل والتفاؤل بالمستقبل .

كانت كتاباتهم كما لو أنها استراحة قصيرة ألوذ إلى فيئها خلال لحظات كآبتي ووحشتي، كتب لي يوماً صديقي علي الجرفطي.

أ خـي :

ترى ماذا عساني أقول لك بعد أن أخذت طريقاً جديداً في الحياة يختلف عن طريقك، فآمالك كما أعلم تستهدف الوصول الى جامعة القرويين . . بينما آمالي وضعتها في عالم التجارة، ومنذ أسبوع فقط استطعت الحصول على ألف بسيطة بسبب عملية تجارية بسيطة . . وهو مبلغ ضخم وقوي بالنسبة لي . . وأنا الذي كنت بالامس في قرية الصخرة أتلوى وأتوجع حسرة للحصول على خمس بسيطات

إن العرائش يا صديقي نشط فيها المضاربون والمتاجرون بأوراق التموين، والمحتسب أصبح من أثرياء البلد المحظوظين ،

ويتنقل في سيارة أمريكية من نوع «فورد» على مرأى ومسمع من الاهالي البؤساء الذين يتضورون جوعا ويشربون السكر الأسود بمقدار.

لا أكتمك يا صديقي بأنني وجدت مبتغاي في عالم المضاربات والسمسرة ولكي تكون تاجراً ناجحاً يجب عليك أن تراوغ وتداري ، وربما تكون مضطراً الى الكذب لتخفي حقيقة نفسك عن عيون المغفلين والسذج

أما بخصوص مغامراتي وتهافتي على النساء الجميلات فيمكنني أن أصارحك بأنني أعيش في غرام حقيقي داخل عش صغير جميل مع الفتاة الاسبانية «ماروخا» بنت جارتنا الاسبانية في حينا، ولا تراودني مطلقاً فكرة الزواج بها لأني لا أرغب في وضع القيد على عنقي، المهم عندي هو إدخال التسلية على نفسي المتوثبة الطموحة الى عالم التجارة والمضاربات . .

إنني يا صديقي أخاطبك بلغة الصراحة التي عهدتها في يوم كنا زملاء في قرية الصخرة ، ولن أكذب عليك إذا قلت لك بأن كلمة «فقيه» لا تعجبني والفقهاء تعساء ينظر الناس إليهم باستهزاء وسخرية، لذلك لا أريد ان أربط مستقبلي بالفقه والفقهاء وتقبل صديقي أخلص المتمنيات .

ووضعت الرسالة جانباً وابتسمت في قرارة نفسي، وتعجبت من التحول الذي طرأ على حياة صديقي الجرفطي، وقد عهدته طالباً ينشد الاستقامة والمعرفة، فكيف تغير بهذا الشكل؟ أتكون الألف بسيطة التي ربحها في صفقة تجارية هي السبب في هذا التحول المفاجىء ؟ ؟ .

أيكون أقصى ما يتمناه ان يمتلك سيارة «فورد» إني أعرف صديقي الجرفطي جيداً وهو الذي كان بالامس القريب ينظم مراجعات للطلبة في دروس الفقه والنحو، كان ذكيا وطموحا لان يصبح قاضياً يحكم فماذا حدث إذن . . ؟

☆ ☆ ☆

وفي ساحة الفدان، وأنا جالس الى زمرة من أصدقائي بالمعهد سمعت نداءات الاطفال وهم يعلنون عن صدور الجريدة المسائية «الاخبار»، واقترب مني طفل أشقر تستر جسده النحيل قطعة متسخة من الثوب الخشن، وناولني عدداً. كان النحل يتجمع حول كؤوس الشاي الاسود الموضوعة فوق الطاولة الصغيرة. والطيور تتنقل أسرابها بين أشجار حديقة الإقامة العامة، ومعطوبو الحرب الاسبانية ـ يقتلون سأمهم بلعب الضامة، أو يجترون ذكريات الحرب الاهلية وتذهب جماعات منهم الى جامع العيون للاستماع الى فقيه واعظ يتحدث اليهم بالدارجة، ويمزح معهم في سخرية محببة عندما يخاطب معطوباً فقد رجله في الحرب الاسبانية : غداً «يوم القيامة» سيسألك ربك أين تركت رجلك؟ هل فقدتها في الجهاد؟ لا، أين تركتها . . . ؟ هل ستقول لربك: ان رجلك قطعت في سبيل «فرنكو» . . ؟ وكذلك أنت يا من فقد عينه سيسألك الله عنها . . . وها أنت أصبحت أعور بينما عينك ذهبت من أجل الشيطان .

والعجيب أن هذا الشيخ الواعظ لم يكن يخشى السلطات، وإلا كان من الصعب عليه أن يتطرق في أحاديثه الى مآسـي المعطوبين، ويهددهم بالانتقام يوم الحشر والميعاد، على أنه بالرغم من طريقته هاتـه في الوعظ. فإن المسجد يكون غاصاً بالجمهور بعد صـلاة المغرب من كل مسـاء. كان حقـاً يحظى بشعبية كبيرة ويتمتع باحترام النـاس.

وفي الصفحة الاولى من الجريدة قرأت أخبـاراً مفادها أن كفة الحرب بدأت تميل لصالح الحلفاء، وأن ثعلب الصحراء رومل آخذ في التراجع أمام القوات الانجليزية، وأن الروسيين يقومون بهجوم مضاد كاسح لطرد الالمان من بلادهم، وتذكرت اللحظة تلك المسرحيات الهـزيلة التـي يشخصها سكان المدينة عندمـا بدأوا في الهتاف لألمانيا الهتليرية . . وما علموا ان فصائل كثيرة من الجنود المغاربة تقاتل جنباً الى جنب في صفوف قوات فرنسا بقيـادة « دوكول » .

إن الشعب المحتل سيظل حيـث هـو ، وأن زهـور النصر سيقطفها الحلفاء الكبار حتماً، ولو على حساب مآت الآلاف من الضحايا الذين جيء بهم كالأغنام والابقار من شتى الدول الصغيرة.

كان زملائي في أتم فرحتهم وهم يحتسون الشاي الثقيل، وخامرت أذهانهم فكرة الذهاب الى حي الطالعة لقضاء وطرهـم من الجماع والجنس، خاصة وقد كانت جيوبهم في تلك الآونة دافئـة بالمنحة الشهرية .

لم يكن يهمهم شيء في هذه الحياة، كان أقصى ما يمنون به أنفسهم ان يصبحوا عدولا في المحكمة الشرعية، وقد يطمع أحدهم في منصب قاض، وربما يحمله الخيال على أجنحة شفافة، ويشيد في لحظات حذائق وقصوراً ومغـاني، وينسى نفسه وهـو الطالب البائس القابع في حجر بمدرسة لوقش لا تكاد تنفذ إليه نسمة هـواء.

كانت آنئـذ الحركة الوطنية في جنـوب المغرب تتهيـأ لانتفاضة ضد سلطات الاحتلال الفرنسية وكنا كطلبة نتفجر بالحماس.

☆ ☆ ☆

وبـدأ الشعب يتوق الى الحرية التي هبت نسماتها، وفاحت أنفاسها في ميادين الحـرب بأوربا، وإلا فلماذا حمل المقاومون السلاح في فرنسا وإيطاليا وغيرهما من بلـدان الشرق والغـرب؟ ألا تكون الحرية هي أملهم ومبتغاهم وهدفهم؟ لكن بالنسبة للمغرب أيـن هي حريته التي طالما تغنى بها الحلفاء؟ أين تضحياته بأبنائه في ميـادين القتـال دفاعاً عن العالم الحر؟.

كان صمتاً أخرس، لا جـواب يبعث الأمـل والطمأنينة في قلوب الوطنيين بالرغم من أن جماعة منهم تقدمت بعريضة الاستقلال للسلطان محمد الخامس في 11 يناير من سنة 1944 وعلى إثرها عرف المغرب انتفاضات شعبية هزت مشاعر سكان الشمال

وسارت مظاهرات الطلبة في شوارع المدينة - وفي ساحة الفدان - هاتفة صارخة بأناشيد التحدي للمحتل التي كنا نحفظها للأستاذ علال الفاسي :

أسجنونا كبلونا
لا نبالي بالقيود
عزمنا عزم شديد
للمعالي كالحديد
أو ننشد بأصوات مجلجلة في فناء مدرسة لوقش :
صوت ينادي المغربي
من مازغ ويعربي

وتواردت الأخبار من منطقة الحماية الفرنسية، مشيعة بأن فرنسا ماضية في تطبيق سياستها العنصرية، والتفريق بين العرب والبربر، مستهدفة بذلك إثارة النزعات القبلية بين أبناء بلد عقيدته الاسلام، وبين جنبات «الجامع الكبير» كان المصلون يرددون بعد صلاة الجمعة : «أللهم يالطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير لا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر» .

☆ ☆ ☆

وانتهت الحرب العالمية بعد هجوم قام به الحلفاء في جميع ميادين الحرب بأوربا، ولم يصدق كثير من الناس هزيمة «هتلر» وانتحاره مع عشيقته «ايفابراون»، وزعم الحاج بن عيسى، وهو من رواد

قهوة «الدحمان» بأن هتلر حي يرزق، ويوجد بعيد عن الأنظار داخل غواصة حصينة في عرض البحر، وسيعود من جديد ليحكم العالم، وكانت حفلات النصر تهز بلداناً كثيرة عانت من ويلات الحرب، في حين كان الشعب المغربي ينتظر الحرية التي لوحت بها الدول العظمى أمام الشعوب المستعمرة، وكانت وعود لمحمد الخامس في مؤتمر «أنفا» المنعقد بالدار البيضاء، بحضور «روزفلت» عن امريكا و«تشرشل» عن انجلترا و«دوكول» عن فرنسا . . . وعود بمنح الاستقلال الى المغرب، جزاء له على مساهمته في دك حصون الدكتاتورية، واستبشرت الجماهير خيراً وظلت تترقب البشرى السعيدة. وفي تطوان كانت المهرجانات تقام في الدور الكبيرة، وفي المسارح، ويشرف على تنظيمها حزب الاصلاح الوطني وقد أسهم فيها بدور بارز اتحاد الطلبة - الذي يضم طلبة المعهد الحر - ومعهد مولاي المهدي، والمعهد الديني، في هذه التجمعات الوطنية كان يتجسم الالتحام والاتحاد حول أهداف عزيزة غالية على الشعب برمته، واندلعت المظاهرات التي هتف فيها المواطنون بالاستقلال والحرية، وسقط ضحايا كثيرون، وقامت السلطات بنفي الاستاذ عبد الخالق الطريس من تطوان. فاستقر بمدينة طنجة، بينما كانت جريدة «الحرية» تجود بآخر أنفاسها، عندما نزلت فصائل الحرس المدني بقبعاتها السوداء إلى ساحة الفدان لتبدأ في مطاردة المواطنين والتنكيل بهم، وهكذا تحولت جنازة الشاب الشهيد المدوري إلى مظاهرة صاخبة شارك فيها سكان المدينة، معلنين عن سخطهم وغضبهم على الاقامة الاسبانية العامة.

كنت في شارع «الترانكات» عندما كانت الشرطة وأعوانها تطارد الوطنيين من زقاق إلى آخر، كان يبدو آنذاك أن زهرة « فرانكو » قد استحالت الى عصى بيد الجلادين، وأن الخنجر الذي طعن به الشاب المدوري انما هو هدية اسبانية الى الشعب الذي سقطت أرواح بنيه فـداء لانتصار «الكاوديو» على «الروخوس»



وفي ليلة من ليالي ماي، وبعد عودتي من جولة في ضواحي «كيتان»، وفيما أنـا أراجع دروسي استعداداً للامتحان، طرق باب مسكني بمدرسة لوقش زميلي «الفحصي» ودخل علي يتلفت خوفاً وخلسة، ثم اقترب مني بحذر شديد ليهمس في أذنـي :

ـ أنصحك بمغادرة المدرسة. السلطات ستبدأ في حملة اعتقال في صفوف طلبـة المعهد الديني ويوجد إسمك ضمن الـلائحة.

كان الصمت يخيم على حجرتي الصغيرة، وبين حين وآخر يصطفق باب، ويفتح باب حجرة مجاورة، بينما رفيقي، يركز علي نظراته المتوجسة، ويزيدني معلومات جديدة :

ـ سيلقى عليك القبض، لانك ألقيت خطبة في دار الطريس نيابة عن زملائك. وأطرقت برأسي كمن يتهيأ لانتظار مفاجأة وقلت لصاحبي مستفسراً :

ـ ومن نقل إليك هذه المعلومات ؟

ـ نقلها الي سراً الفقيه الحساني وهو عميل جاسوس كما يشاع، لكن قرابتي العائلية بـه جعلته يفشي إلي بهذه الاخبار، حتى يتيح لي ولك فرصة الهرب والاختفاء . .

قاطعته باندهاش :

ـ الهرب ؟ وإلى أين ؟

ومسك بسيجارة تبغ أسود، وجذب منها نفساً عميقاً ثم أجابني :

ـ سنهرب عن طريق مدشر «الزينات» القريب من طنجة وقد رتبت كل شيء مع أهلي وأصحابي هناك .

ورنت في مسمعي كلمات الهروب والاختفاء والابتعاد، والتواري عن الانظار، دون أن أدرك لماذا كـان مقدراً علي أن أصبح طريد السلطات الاسبانية، في حين أن والـدي بالعرائش، يترقب عودتي بالنتيجة العلمية بعد الامتحان، كيـف أنطلق مع رفيقـي الفحصي هائما بين شعاب الجبـال، معرضـاً نفسي لخطر حراس الحدود الفاصلة بين المنطقة الخليفية، والمنطقة الدولية.

وأرسـل رفيقي سحابة قاتمـة من الدخان، ثـم استعجلنـي بصوتـه الأجـش :

ـ ليس هنـاك وقت للتفكير، المهم أن تهيء نفسك ابتداء من صبـاح الغد، وكنت ألتفت الى أمتعتي وحوائجي وكتـبي، وأخمن في طريقـة حملها معي، بيد أن رفيقي الفحصي خلصني من كابوسي قـائلا :

ـ أمتعتك وكتبك يمكنك أن تبيعها لتجار الخردة بسوق الغرسة الكبيرة ـ المهم يا أخي أن يكون الحمل خفيفا جداً.

كان أمامي احتمالان ولا ثالث لهما، فإما أن أبقى ويلقى علي القبض، وأتعرض لاقسى أنواع التنكيل والسجن، وإما أن أغامر مع رفيقي الفحصي، وأنسلل كالشريد الطريد الى طنجة . ولم يكن لي من خيار سوى التشبث، بالحل الثاني، وفي هذه اللحظة كان رفيقي ينتظر قراري الاخير.

ها أنذا الآن أستعد لفراق مدرسة لوقش متستراً تحت جنح الظلام، مطارداً كما لو أنني لص، ما ذا جنيت حتى يكتب علي أن أبدأ رحلة التشرد ؟ أتكون حقاً الكلمة التي ألقيتها أمام زملائي بالنيابة عن إخواني الطلبة سبباً في سخط سلطات الحماية الاسبانية علي، ونقمتها على زملائي الآخرين، وفي طليعتهم الطاهر العروسي ؟ لا . لا أعتقد ذلك فالكلمة التي ألقيتها كانت مكتوبة بصدق . . كانت قصيدة نثرية تمجد الحرية التي يتغذى بها الاحرار فى العالم.. لم أشتم فيها أحداً من رجال الاقامة العامة.. لم أندد فيها بدور العملاء والجواسيس الذين اغتالوا بالخنجر الشاب الشهيد المدوري .

☆ ☆ ☆

كانت رحلة مضنية الى مدشر «الزينات» . . بدأت الرحلة رفقة صديقي الفحصي الى «أزيلا» ومن هناك ركبنا القطار

المتجه الى طنجة ، ونزلنا في محطة صغيرة ، ومنها بدأنا نتسلق هضبة عالية في اتجاه المدشر

كان الليل يرخي سدوله ، والكلاب لا تنفك عن النباح المتقطع حيناً المسترسل أحياناً ، وغلفنا الصمت بكآبته ، ولولا وقع أقدامنا لكنا نخال أنفسنا نمشي فوق الرمال . كان صديقي يعرف الطريق جيداً . وكنا على مقربة الديوانة الدولية حيث حراس الجمارك . ومع ذلك فقد كان الرفيق واثقاً من نفسه ، ثم انحدرنا وسط غابة من أشجار الدفلى ، حيث الواد يفصل فيما بيننا وبين الجانب الآخر .

قال لي رفيقي :

- أتسبح جيداً ؟

وهممت فى همس :

- في البحر نعم

- طيب . إذن بسم الله لننزع ثيابنا . .

وانطلقنا سباحة نعبر الواد ، وسمعنا أثناء ذلك أصواتاً بعيدة ، وبادرني صديقي :

- أتسمع ؟ ان هذه أصوات لحراس الحدود . . إنهم هناك . .

- صه

- لا . . صه . بشد وكسر الهاء . .

ثم أخذنا في الصعود وسط أحجـار وصخور هائلة كانـت بمثابة الجبل الذي شد إليه القرية الصغيرة . . كانت أنوار خافتة تبدو من بعيد مضيئة في ليل أسود حالك واشتد النباح كما لو أن الكلاب قـد أحست بمقدم أشخاص غربـاء، وهمس صديقي :
ـ لنقصد المسجد . . ونبيت بـه .

وكان الجامع صغيراً . . اهتدينا اليه بواسطة صوت المؤذن وهو يدعو لصلاة العشاء وتسللنا داخله ، وانزوينا في ركن قريب، نستريح من عناء الرحلة ، ورأيت صديقي يقترب من فقيه الجامع وتحدث معه، وخشيت أن يبلغ بنا مقدم القرية، فيلقي علينا القبض، لكن الفقيه سرعان ما أقبل علينا ودعانا الى تناول طعام العشاء معه.

وتنفست الصعداء . . وخرجت إلى فناء المسجد، ومن تحت شجرة الزيتون الوحيدة تطلعت بعيداً الى عرس رائع من الانوار التي تسطع وتخبو في وقت واحـد . . إنها هناك . . إنها الغادة التي تغسلها أمواج البحر الابيض والمحيط دائما وبدون فتور أو ملل.

☆ ☆ ☆

طنجة عروس مستلقية في استرخاء على شاطىء البحر الابيض المتوسط شمالا . . وعلى شاطىء المحيط الاطلسي غربـاً، تتطلـع بشوق وحنين الى جبل طارق والجزر الخالدات ومدينة طريفة في جنوب الاندلس. ها أنذا أضع قدمي على رصيف كورنيشها الممتد

الطويل، وأنا أتلفت بحذر كما لو أنني مطارد، لقد بدت لي مدينتي المغربية طنجة مختلفة تماماً من مدينة سيدي علي المنظري تطوان، فرايات الدول من مختلف الجنسيات ترفرف على البناءات ودور السكنى والمؤسسات، ولهجات ولغات شتى يلغط بها سكان المدينة الأوربيون، وحتى الوجوه والملامح والسحنات تميز أكثرها مصبوغاً ومشوباً باللونين الاحمر والأشقر.

تلك هي قطعة أخرى من بلادي مفصولة تماماً عن بقية أجزاء الوطن، ويطلقون عليها «المنطقة الدولية»، ولن يدخلها المواطن المغربي الآتي من الجنوب والشمال الا إذا كان متوفراً على جواز سفر وتأشيرة، ورجال الجمارك وموظفوا الديوانة يرتابون في كل مغربي أو مغربية عند نقطة الحدود، وأذكر أن أصدقاء لي بتطوان حاولوا عبثاً الحصول على جواز سفر للدخول الى طنجة بقصد السياحة، وربما قضى أحدهم ثلاثة أشهر أو نصف عام في انتظار الجواز، ولقد أحسست حقيقة بمركب النقص وأنا أتسلل باحتراس شديد الى «الجامع الكبير» خوفاً من مطاردة الشرطة خصوصاً وقد دخلت المدينة كلاجىء قروي عبر مدشر الزينات.

واتكأت مستنداً بظهري في إعياء الى إحدى سواري المسجد وشعرت بحاجة الى النوم بالرغم من الجوع الذي كان ينهش أمعائي، كان الوقت عصراً والوافدون لاداء الصلاة يتسابقون الى الصف الاول قرب المحراب، وتثاقلت حركة يدي وأنا أتناول حجراً للتيمم به ما دام ذلك مسموحاً للمسافر المتعب المرهق مثلي.

وبعد الصلاة، وبينما كنت أهم بالعودة الى ساريتي اذا برجل وسيم ملتحي يدنو مني ويسألني بهمس :

ـ أأنت من تطوان . ؟

ولم أجب الرجل ، ذلك لأنني توجست الشر منه ، وخمنت أن يكون عيناً للشرطة على الغرباء القادمين إلى المدينة، وكانت نظراتي متنتة ومركزة على سحنته التي بدت لي بريئة، وأردف مستفسراً:

ـ أأنت طالب في المعهد الديني بتطوان ؟

وزادت هواجسي ، لكنه سرعان ما قاطع صمتي وارتيابي وشكوكي في هويته :

ـ أنا مثلك هاجرت تطوان بعد أحداث «الترانكات» التي قتل فيها الشهيد المدوري عرفتك يوم جئت الى دار السيد «الصفار» لتلقي كلمة باسم اتحاد طلبة المعهد الديني

وتنفست الصعداء، واطمأنت الى طوية الرجل ـ الذي هاجر مثلي الى المدينة الدولية فراراً من قمع وبطش أعوان نيابة الامور السياسية بتطوان .

وعاد إلى أسئلته، وفي هذه المرة كنت مستعداً للإجابة عنها والتجاوب معها. بعد أن استطعت فك لغز ورموز «الشفرة» السرية التي يتعارف بواسطتها الوطنيون اللاجئون في طنجة .

ـ هل لك أحد في طنجة ؟

ـ لا . . لا أعرف أحداً .

ـ هل يمكنك أن تقوم بمهمة التدريس ؟

ـ كيف ؟

ـ العمل في مدرسة وطنية حرة للبنين ؟

وقبل أن أجيبه فكرت في آفاق المستقبل ـ وطموحي البعيد للالتحاق بجامعة القرويين بفاس ، لكن بماذا سأعيش في مدينة أجد فيها نفسي غريباً بلا معين ولا رفيق، ولم أتردد في التعبير عن موافقتي على عرضه الانساني وغمغمت :

ـ أشكرك يا أخي

حقاً كنت في أمس الحاجة الى عمل أعيش بدخله خلال مدة إقامتي بطنجة

☆ ☆ ☆

وفي مدرسة حرة لتعليم البنين بجبل الكبير بدأت مهنة التعليم لقاء أجر شهري زهيد ومع ذلك كنت أسعد حظاً من رفيقي الذي لا أعرف وجهته منذ ان افترقنا عند مدخل المدينة، كانت المدرسة الصغيرة قائمة على منحدر الجبل. وتطل نوافذ حجراتها على البحر الذي تبدو مويجاته وكأنها نتف بيضاء من الثلج ، تتحرك وتهتز فوق الماء، وأذكر أن عنوان أول حصة درس كتبتها على السبورة: «العصفور والحرية» ، وهي قصة عصفور من نوع

(الكانار) وضعه صاحبه داخل قفص من ذهب، ويحاول جاهداً أن يفلت من القيد والأسر، لكنه لا يستطيع، فجعل يزقزق ويتبادل الأغاريد مع العصافير الأخرى المتمتعة بحريتها بين أشجار الجبل، إن نظرات الاطفال المصوبة الى معلميهم تبدو جامدة ساذجة فماذا تعني الحرية بالنسبة لهم ؟ وماذا يهمهم وجود الطائر في قفص؟ كان من الصعب علي أن أشرح لهم معنى الرمز الذي يوحيه سجن الطائر، فالوطن هو الآخر مكبوتة حريته. ويعيش وراء قضبان سجن الاحتلال، وزعماؤه منفيون مبعدون . . إنه يتطلع الى الحرية، ويرى بلداناً وشعوباً تتمتع باستقلالها، ويزقزق كالعصافير المحبوسة المحرومة من الانطلاق في الأرض الفسيحة، والتحليق بعيداً بين أديم السماء.

إن الاطفال لا يهتمون بالرموز بالرغم من كونهم يتمتعون بالخيال الناذر ، يهمهم فقط أن يعرفوا أن الطائر السيء الحظ يعيش مستمتعاً في القفص الذهبي وينقر بين الفينة والفينة حبات « الزوان » إذه يبدو أحسن حظاً من العصافير البرية الطليقة التي يعييها ويضنيها البحث عن العيش ، قد يكون هذا هو تصورهم لموضوع الدرس، لكن هل تستوعب عقولهم الصغيرة بأن الحرية مع السغب والحرمان أحلى طعماً من العبودية فى ظل الرفاهية؟.

وأخذت أشرح لهم الدرس . . وعيناي متبتان نظراتهما على الافق البعيد. حيث تتراءى قمة جبل طارق وهي مندسة بين الغمام.

نعم أطفالي الصغار - إنكم الجيل الذي سيقطف ثمرات

الحرية فمهلا . هذه فرصتكم وعند ما دق الجرس مؤذناً بانتهاء الحصة المخصصة للقراءة والمطالعة، كان يحوم في ذهني خاطر ملح. كنت أعتزم بعث رسالة الى والدي في العرائش .

وذات ليلـة كتبت :

والـدي العزيـز

ها أنذا في طنجة . وقد اضطرتني ظروف قاهرة للالتجاء اليها، وسأقضي بها فترة زمنية. ريثما أشد رحالي الى فاس لأواصل تعليمي بجامعة القرويين، وحينئذ سأكون قد حققت لك رغبتك الكبيرة ورغبة الوالدة العزيزة التي تطمح أن يعود اليها ولدها وقد أصبح فقيهاً متخصصاً في علوم الشرع والدين .

إنني بصراحة يا والدي لم استطع رغم نصائحك لي بالاهتمام فقط بدروسي من كتم مشاعر الكراهية لرجال السلطة الاستعمارية بتطوان، وهذا طبعا يصرف ذهني من القراءة المركزة. إنهم يـا أبي يضمرون عداء شديداً للمواطنين الشرفاء، ونحن في نظرهم أشبـه بالحشرات التـى تدب على الارض، والمقيم العـام نفسـه، ونائب الامور السياسية يشهران سلاح القمع على الحرية، ولن يتورعـا من خنق الاصوات والانفاس معـا.

حقيقة يا والدي انني لا أجهل عواقب وظروف المأزق الذي وضعتك فيه بسبب نزوحي الى طنجة، واختفائي من أعين الشرطة الاسبانية التي لا تزال جادة في البحث عني وملاحقتي، خـاصة

وأنا أعلم أن السلطة قد تعمد بكل سهولة الى سحب رخصة المتجر منك وهو المورد الوحيد لعيش الاسرة، انتقاماً مني في شخصك، لذلك أدعو الله ان يحفظك من كل مكروه .

انا الآن يا والدي أعمل مدرسا للغة العربية في مؤسسة حرة للتعليم، وهذا العمل اعتبره مؤقتاً إلى أن تتاح لي فرصة النزوح الى مدينة فاس.

تحياتي . . وسلامي على الوالدة .

ابنك : حميد المشيشي

كان عقربا الساعة يدنوان من الواحدة بعد منتصف الليل وهدير الموج ينبعث صداه من خلال أشجار الجبل، بينما النوم يدغدغ جفني، وخدر يدب في أوصالي، وبحركة كسولة اطفأت مصباح الغاز الذي كان مؤنسي في الليالي الطويلة والباردة داخل «البراكة» الخشبية التابعة للمدرسة .

ومن الرفقاء الذي تعرفت إليهم خلال مزاولة مهنة التدريس بالمعهد استاذ اللغة الاسبانية « سولرسانو » الذي تخوفت من الالتقاء به في باديء الامر - لكن مدير المدرسة طمأنني قائلا: إنه هو الآخر مواطن اسباني التجأ الى طنجة مع أسرته بسبب أفكاره تجاه حكم « الكاوديو » .

كان يزورني في بيتي، وأجد صعوبة في التحدث اليه

بسبب جهلي التام باللغة الاسبانية، بيد أن كلمات قليلة كانت تترجم مشاعرنا نحن الاثنين، وكان إبريق الشاي الصغير الموضوع أمامنا يزيد في توثيق عرى المودة. فكان لا يفتأ من الثناء على الطريقة الجيدة التي أعد بها الشاي المنعنع، ومرة وأنا اجد صعوبة بالغة في شرح فكرة اختمرت في رأسي قلت له :

– هل من الممكن أن نتبادل المعرفة فيما بيننا، فأعلمك بعض قواعد العربية، وتعلمني الاسبانية.

ولم يتردد صديقي « سولرسانو » في الاستجابة الى اقتراحي، خاصة بعد أن أبديت له إعجابي الشديد بالأدب الاسباني الذي كنت مشغوفاً بقراءته مترجما الى اللغة العربية وتأثري الشديد لمقتل الاديب الشاعر «گارسيا لوركا» من طرف جماعة «فرانكو» خلال الحرب الاهلية وذكرت له اسم «خوان رامون خيمينيث» مؤلف «Platero y Yo» «أنا وحماري الصغير» كما أفصحت له عن إعجابي بقراءة أدب « سيرفانطيس » وروايته الخالدة «ضون كيخوطى» .

ولاول مرة وأنا أعتزم تعلم لغة جديدة علي، شعرت بأن شيئاً ما مهما يطرأ على حياتي الثقافية، كنت مثل ذلك الظمآن الذي وجد نفسه في صحراء قاحلة، وإذا به فجأة يكتشف من وراء تل الرمال واحة خضراء مليئة بالعشب والماء، وتوالت دروسي مع أستاذ اللغة الاسبانية، كما توالت دروسه الاسبانية معي.

وكانت أحسن أوقاتنا نقضيها في مقهى صغيرة، تقع قريباً من مغارة هرقل وخلال جلساتنا الهادئة لم أكن راغباً في إجراحه بالسؤال عن حياته العائلية، كما أنه لم يسألني يوماً عن عائلتي المقيمة بالعرائش، هل يكون مرد ذلك الى تخوفه وتحفظه لا سيما وأن عساكر «الكاوديو» في تلك الايام كانوا منهمكين في حملة تطهير واسعة النطاق، لكل من يشمون فيه رائحة حنينة أو تعاطفه مع أنصار الجمهورية المندحرة، وأنا بدوري كنت أتحفظ في حديثي معه عن آمالي ومطامحي وتعرضي لقمع السلطة ومطاردتها لي في تطوان، لذلك كله سواء هو - أو أنا فضلنا حديث الأدب الاسباني.

وبصوت دافيء أجش - كان يملي على مسمعي قطعة أدبية لاديبي المفضل «خوان رامون خيمينيث» وعنوانها «El Pan» «الخبز».

وكان حواراً إنسانياً وعميقاً بين الكاتب وحماره الصغير، تناول أهمية الخبز بالنسبة الى حياة سكان قرية «Moguer» «موكير» الاندلاسية.

وعندما يقبل حاملو الخبز، ويشرفون على القرية تسرى همهمة الفرح بين الاطفال والصبايا، إنه الرغيف إنه العيش والحياة لهم، سواء أكان من الدقيق الابيض أو الدقيق الاسمر.

وأذكر ان «سولرسانو» توقف لحظة من النطق كمن تذكر شيئا فجأة وارتسم على ملامحه تعبير حزين ادركت

من خلاله أنه يمر بأزمة في حياته. ولم ينتظر استفساري أو تساؤلي عن حالته هاته، ونظر إلي مليا، ثم قال لي :

ـ أتعلم لماذا اخترت أن يكون عنوان أول درس أدبي معك في الاملاء هو « El Pan » «الخبز» فلأن زوجتي تعمل في مخبزة ـ في «البوليفار»، وتساعدها بنتي «بيلار» انها مهنة نعيش منها، ونضمن بها الخبز لأطفالنا.

وان اسم «بيلار» في رأسي وامع في مخيلتي كيف تكون؟ كم عمرها؟ هل ستفهمني يوماً اذا حدثتها بإسبانية لا أجيد منها سوى كلمات قليلة.

وكانت ليلة عاصفة من ليالي دجنبر 1946، وقد تحلقنا حول مائدة بغرفة يسكنها صديقي «سولرسانو» مع زوجته «ماريا» وبنته «بيلار». كان يتوسط المائدة ديك مشوي موضوع على آنية من خزف، تزينه شرائح الليمون وأعشاب المعدنوس ـ والبطاطا المقلية، وتحيط به أنواع الحلوى التي تعد خصيصا لليلة السعيدة من عيد ميلاد المسيح، يضاف إلى ذلك كله زجاجة خمر ملفوفة في شرائط حريرية ملونة.

كانت «بيلار» قبالتي، الى جوار أبيها الذي اغتنم فرصة مناسبة العيد ليعرفني بها. كان قرطان حمراوان يتدلهان من أذنيها الصغيرتين ـ بينما عيناها الواسعتان لا يفتأ يؤبؤهما عن الحركات والاشارات الحلوة.

كنت ألوذ بالصمت المطبق، كما لو كنت أخرس - وأحاول جاهدا بمساعدة أستاذي في الاسبانية لأفوه بكلمات وحروف أضمنها تهنأتي للأسرة الصغيرة باعياد الميلاد .

كانت الأنوار تسطع من بعيد فوق المراكب والسفن الراسية بمدخل الميناء الذي تشرف عليه مدينة طنجة من كل الجهات، وكأنها في عرس بهيج تحتفي فيه بالليالي الاخيرة من عام يوشك أن يودعنا ليحل بعده عام جديد.

ورأيت صديقي « سولرسانو » يفرغ لي من الزجاجة شرابا أشبه بالماء فى كأس، ويحثني على تناوله، لكنني اعتذرت له، بيد أنه ألح علي أن أشاركه، وأشاطر أسرته فرحة العيد، ولن تتم فرحته اذا لم أتناول ولو جرعة صغيرة كما قال من شراب « أنيس » .

يا لله . . كيف أشرب كأسي الاولى من الخمر، وأنا الذي عشت في بيئة تحرمها ويلعن الله حاملها وشاربها والمتجر فيها، كما كان يقول ذلك شيخي في قرية الصخرة أثناء خطبة الجمعة. لكن لماذا لا أذوق طعمه ثم أرفع كف الضراعة الى الله ليشملني بعفوه وثوابه ؟

وهكذا رفعت الكأس الى فمي، وشعرت على التو بشواظ من نار في حلقي، بالرغم من أن لساني كان يتذوق في نفس الوقت . . . رائحة « حب الجلجلان » الذي كانت تقدمه لي

والدتي خلال الليالي البـاردة ممزوجا بالحليب، عندما كنت أصاب بنزلة بـرد شديدة فـي صدري وأنا صغيـر احن إلى الدفـىء

وصعدت الحرارة إلى رأسي، واندفعت مـن شفتي كلمات بالاسبانية، ولفظت باسم « بيلار » دون أن أدري كيف تجـرأت على ذلك، في حين ارتسمت علامات الرضـا عن وجـه صديقي « سولرسانو » وزوجته الوفية « ماريا » .

ومرقت أمامي صورة بنت خالي كنزة التي كانت حبي الاول ، ولكنها الآن وقد أصبحت في ذمة شخص آخر ، بدأ الضباب يغشاها ، وأنا أحملق مبهـوراً في « بيلار » التي كانت في أتم سعادتها ، وهي تتحدث بصوت عذب كما لو أنها عصفور يغرد في جنينة أحلامه ، على أن انبهاري هـذا حولته بالرغم من مشاعري الى إعجاب بالجمال ، خوفاً مـن أصـدم يومـاً ما إذا ما أحببتها حقيقة كما أحببت كنزة، لذلك أطرقت برأسي، وتشاغلت بالنظر الى ساعـة الحائط التي كانت تشير الى منتصف الليـل .

إن هناك لحظات في حياة الانسان يحس خلالها بشيء يثقل روحه ، وهو يتذكر فجأة وجوه أحبائه وأصدقائه المتوارين عنـه من وراء حجب النسيان ، أين هم الآن زملائي في مدشر الصخرة ، وقد كنت أجد في كنفهم سعادة تغمرني ؟ وحتى هـذه اللحظة بالذات ، وأنفاس « بيلار » تتدفق من فرط الفرحـة ، أخشى أن تنفلت من بين أصابع الزمـن ، وتضيع كسراب يحسه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئـاً .

ان عرقاً يتصبب على جبهتي ، رغم ان البرد شديد والعاصفة مزمجرة خارج الغرفة ، حيث تبدو أشجار الجبل من وراء النافذة وهي تتحرك يميناً ويساراً كما لو أنها أشباح ليلية

وبأصابع شمعية تناولت « بيلار » الزجاجة ، وصبت لي كأسا من مشروب « الزنجلان » وهي تنصحني ضاحكة :

ـ اشرب يا صديقي العرائشي . . اشرب لتنسى أفكارك .

والتفتت الى أبيها في جذل عفوي وطبيعي :

ـ أليس كذلك ؟

وهز « سولرسانو » رأسه . . وكان قد بدأ يثقل ، وكلماته تتلعثم بين شفتيه في حين كانت الأم تبدي اهتماماً خاصاً بتصرفات بنتها تجاهي .

☆ ☆ ☆

وفي صباح يوم من أيام مارس 1947 وفيما كنت أعطي درساً في قواعد اللغة العربية التي كنت أجد نفسي منشرحاً لتعليمها وشرحها لتلامذتي ، إذا بمدير المدرسة يفاجئني بحضوره، ويقوم التلاميذ من مقاعدهم احتراماً له ، كان وجهه متألقاً وهو يركز نظراته على السبورة التي كان مكتوباً عليها بحروف بارزة « كان وأخواتها » ثم توجه إلي ، والتلاميذ يصغون بانتباه الى ما سيقوله :

- ابتداء من الغد ستخصص المدرسة حصة يوميـة لحفظ الاناشيد ، ولهذا يجب عليكم حفظها قبل نهاية الشهر . وقبل ان يغـادر الحجرة التفت الي ليـزف الي خبـراً يبهجني وهـو الذي يعرف حقيقة مشاعري :

السلطان محمد الخامس سيزور طنجة ، ولم أصدق الخبر في أول وهلة ، لذلك استفسرته :

- وكيف ستتم هذه الزيارة والاستعمار جاثم يقمع الاحرار في المناطق الثلاث من بلادنا ؟

وكان همس التلاميذ ولغطهم الخافت مـع بعضهم يحول دون سماعهم لحديثي مع المدير الذي انصرف وهو يقول لي :

- انها رحلة تاريخية عظيمة

كان قادة بعض الهيـآت السياسيـة والاحزاب الوطنيـة ملتجئين الى طنجـة ، وعلى مـر الايـام واقتراب موعد الزيارة ، أخذت تتجلى معالم الفرح في أزقة المدينـة وشوارعها ، وكانت أصوات الاطفال الشجية تصدح بالاناشيد الوطنية التي كان مقرراً ان تترجم روعة وجمال لقاء سكان مدينة طنجة للسلطان .

ولن أنسى تلك اللحظـة المقتطعـة من عمر الزمن ، وذلك الاحساس الذي غمرني بفيض من العواطف ؛ والتلاميـذ واقفـون برفقة مدير المدرسة والاساتذة قريبـاً من محطة القطار ، وعلى

جوانب الطرق بدت الامواج البشرية محتشدة ، والانظار متطلعة الى خط سكة الحديد الذي يصل جنوب الوطن بشماله

وتعالت الاصوات والاغاريد والزغاريت في عرس شعبي حقيقي والقطار يقترب . . وشيئاً فشيئاً لاحظت طلعة الملك وقد ارتدى جلابة بيضاء ، زادتها بهاء تلك الابتسامة التي كانت دليل محبة بين ملك وشعب ، وفي حشد ضخم سمعت كلماته :

إذا كان ضياع الحق في سكوت أهله عنه فما ضاع حق من ورائه طالب . . ان حق الامة لن يضيع .

كان حدثاً فريداً ، وما كنت لأعيشه لو أنني بقيت في مدرسة لوقش بتطوان ، وعلى إثره لاحت في سماء بلادي تباشير الحرية التي كانت حديث المجالس في كل مكان ، وفي حجرة الدرس أعدت لتلاميذي شرح موضوع الحرية التي يرنو اها طائر « الكنار » وهو داخل قفصه الذهبي ، وما الشعب الا طائر قص الاستعمار جناحيه، فانزوى حزيناً ينتفض، ولا يطيق الحركة أو التغريد .

ولاول مرة سمعت من التلاميذ أسئلة شتى عن معنى « الحماية » ، والفرق بين « الحماية » و « الاستعمار » . والشعوب التي تمتعت بحريتها بعد الحرب ، ومع أنها أسئلة قد تبدو بعيدة عن أذهان الجيل الصاعد الصغير ، الا ان زيارة محمد الخامس قد أججت الافكار ، وتبادل الآباء والابناء مغزاها وهدفها وآثارها على مستقبل الوطن وحريته .

وفي تلك الاثناء ، وبينما كنت في (السوق الداخل) أتفرج على المعروضات التجارية ، اذا بيد تمسكني من الخلف ، واستدرت بسرعة لأرى من يمسكني ، وكم عقدت المفاجأة لساني عند ما شهدت أمامي ناظر العرائش صديق والدي ، واحتضنني وعرض علي مرافقته الى قهوة (باريس) . كان كلانا مشتاق الى معرفة ما في جعبة الآخر :

ـ منذ زيارة السلطان وأنا أبحث عنك . أين أنت ؟

ـ أنا الآن في مؤسسة حرة للتعليم . وما أخبار والدي .. ؟

ـ والدك بخير، وقد توصل برسالتك، ويوجد لدي جواب منه.

وأخرج الرسالة ، وسلمها لي وهو يستفسرني عن أحوالي :

ـ كيف سمحت في دراستك بالمعهد الديني بتطوان ؟

ـ إنها ظروف قاهرة .

ـ والدك كان ينتظر منك ان تتم تعليمك الثانوي بالمعهد ، وتلتحق بعد ذلك بالقرويين ، تلك هي أمنيته .

ـ سأفعل إن شاء الله ، وسأسافر الى فاس بمجرد حصولي على جواز سفر .

ـ وأين تسكن ؟

ـ أسكن في بيت بجوار المدرسة

ـ في أي حي ؟

ـ قريباً من الجبل الكبير .

كان الناظر هو نفسه الذي توسط لي مع ادارة المعهد الديني بتطوان، لتمنحني السكنى بمدرسة لوقش، إنه لم يتغير كثيراً على ما يبدو، بالعكس، كانت امارات اليسر بادية على محياه، ومن شكل جلابته (البزيوية) وخاتم الذهب المرصع بحجر أخضر في أصبعه، والعمامة الحريرية البيضاء الملفوفة حول رأسه، كل ذلك جعلني أعتقد أن الناظر ما زال كما عرفته.

وسألته عن زيارته لطنجة، فقال لي: إن سلطات العرائش رشحته ليكون ضمن وفد يضم أعيان المدينة ووجهاءها ليكونوا في استقبال السلطان، وتساءلت في قرارة نفسي: ترى من هم رجال السلطة؟ أليسوا هم الحاكم العسكري والمراقب السياسي؟ ألا يكون الناظر مبعوثاً لهؤلاء للتجسس على النازحين إلى المنطقة الدولية. وقطعت تساؤلاتي:

ـ ما هي حالة والدي الصحية؟ أهو بخير؟

ـ وعكة صحية ألمت به منذ شهر بسبب نزلة برد، لكنه الآن بخير.

ـ ووالدتي ما هي أخبارك عنها؟

ـ والدتك في صحة وعافية، وقد ساءها نزوحك الى طنجة، وانقطاعك عن الدراسة.

ـ لا.. لا. قل لوالدتي عند ما ترجع الى العرائش، بأني سألتحق قريباً بمدينة فاس لأعود منها عالماً فقيهاً

ـ ان شاء الله .

وأخـذ الناظر يتلفت يمنـة ويسرة الى الجالسين حولنا من رواد القهوة الباريسية ، ثم همس في أذني :

ـ ما هي أصداء زيارة السلطان في الاوساط الوطنيـة ؟ ما هي الاخبار التي تروج في المدينة ؟ ما ذا يقولون ؟

وتشاغلت عن إجابته بتناول فنجان القهوة ، لكنه عاد يلح علي قائلا ، وهو يناولني ورقة صغيرة :

ـ اكتب على هذه الورقة عنوان سكناك بطنجة .

ـ لا يوجد عندي عنوان السكنى

ـ كيف ؟

ـ سكناي الحالية في حي غير معروف .

ـ طيب . . والمدرسة أين توجد . . ؟

ـ في الجبل الكبير .

ـ في أي حي ، وفي أي شارع ؟

ولم أجبه ، ولم أهتم بمـا طلب من معلومات ، وشغلني هاجس غريب ، وانـا أحملق في ملامحـه بدهشة ، صورة الناظر الحقيقية تتبلور أمامي ، وأنه جـاء الى طنجـة ليعرف النازحين اليها ، وعناوين سكناهم . وتشاغلت بفض غـلاف رسالة والدي ، في حين كان الناظر ينتظر مني تزويده بأجوبة ومعلومات عن استفساراته الملحـة . وكما لو كـان الوالد ماثـلا أمامي بهيأته المهيبة ، ومحياه الوضيء جاءني صوته :

ولدي العزيز .

سمعت عن وجـودك بطنجـة بواسطـة بعض المسافـرين القادمين من هناك ، وما كنت لأصدقهم لولا أنني تلقيت منـك رسالة أكدت لي وجودك في طنجة ، وكنت أحسبك في تطوان تتلقى بمعهدها الديني دراستك، قد ساءني جداً ما آل اليه أمرك، وأخشى أن يخيب أملي فيك . ولا تواصل دراستك كما عاهدتني في جامع القرويين بفاس .

ان والدتك يا بني آلمهـا هي الاخرى أن يصبـح ولدهـا مشرداً ، وينقطـع عن دروسه ، لذا يا ولدي ألح عليـك بالالتحاق بفاس في أقرب وقت . وسأبعث لك قريبـاً بالدراهم لتكون الك عوناً في رحلتك القادمة الى القرويين لاستكمال دراستك ، وعند ما تصلهـا أخبرني لأطمئن عليك وتطمئن أمك ـ والسلام .

والدك

الحاج احمد المشيشي

وكان الناظر يتهيأ للانصراف عند ما أتيت على آخر سطر من رسالة والدي وودعني وهو يقول لي :

ـ على أي حال سأقول لوالدك إنك بخير .

ـ شكراً .

كانت « قهـوة باريس » غاصة بروادها الكثيرين كما لو

كانت منتدى لهيأة دولية من شتى الاجناس ، فالايطالي ، والانجليزي ، والامريكي ، والفرنسي ، والبرتغالي ، والالماني ، كلهم يترددون عليها لتناول فناجين القهوة ذات الاريج المعطر .

وحاولت صرف الافكار ، وكلمات العتاب الموجهة الي من والدي ، لكن ما ذا سأعمل ؟ ودخلت في هذه الاثناء فتاة أندلسية سمراء قريبة الشبه بيلار ، وتذكرت كنزة بنت خالي وحبي الاول الذي مضى الى غير رجعة . ورنت كلمة « سفر » كقرع جرس في أعماقي ، لكن كيف أحصل على الجواز الذي سيساعدني على عبور الحدود الدولية الى المنطقتين الشمالية والجنوبية من بلادي ؟ اني أعلم ان مدير المعهد الذي أعمل فيه ، له أخ موظف في مندوبية طنجة . ويمكن أن يقدم لي هذه المساعدة . إذن يجب علي مخاطبته في الأمر . وبالفعل لقيت من صديقي المدير كل مساعدة وسلمته الصور وشهادة المهنة وشهادة الميلاد . وخشيت ان يرفض قسم الجوازات في المندوبية طلبي بالحصول على جواز ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، خاصة وقد واعدت موظف المندوبية بمنحه ألف فرنك .

وفيما كنت أرتب أموري ، وأحزم حقيبة السفر جاءني مكلف المدرسة ليخبرني بأن شخصاً يريد مقابلتي فمن يكون؟

وأغلقت باب مسكني ، وتوجهت الى باب المدرسة لأجد الشخص في انتظاري .

ـ منذ الأمس وأنا أبحث عنك . . .

ـ ومن أين جئت . . . ؟

ـ من العرائش .

وكم غمرتني الفرحة ، لم أصدق ما أسمع . كيف يقبل علي شخص يذكرني بأحبائي في العرائش ، ورجوته مرافقتي الى حجرتي الصغيرة ، لكنه اعتذر وسلمني مبلغاً من الدراهم ، وأبلغني بأن والدي ينصحني بمغادرة طنجة ، والالتحاق بفاس وإخباره بذلك . وعند ما ودعني الزائر جعلت أحسب الورقات المالية العشر من فئة ألف فرنك وهي كل ميزانيتي لمستقبل الايام .

وكان يوم وداعي لأعزائي وأحبائي في طنجة حافلا ، ففي حصة الدرس الاخير للتربية الوطنية أمطرني التلاميذ بأسئلتهم:

ـ لماذا ستفارقنا يا أستاذ ؟

ـ ألا تبقى معنا . . ؟

ـ دروسك يا أستاذ نفهمها جيداً فلماذا ستحرمنا منها ؟

وجاء المدير ليرى علامات التأثر بادية على وجهي وتلاميذي يحيطون بي ، وينتظرون مني جواباً شافياً ، وأنقذني من حرجي عند ما أخذ يطمئنهم :

ـ الأستاذ سيفارقنا مع الأسف على أن يعود إلينا قريباً .

ولم أشأ فراق طنجة دون القيام بزيارة وداع لصديقي « سولرسانو » وأسرته في بيته . وعقدت الدهشة لسانه وهو لا يكاد يصدقني .

ـ جئت لأودعك

ـ كيف ؟

ـ صباح الغد سأسافر في أول قطار متجه الى مدينة فاس .

ـ فاس . ؟

ـ نعم في فاس سألتحق بجامعة القرويين .

ـ لا . لا صديقي ـ مستحيل ، أتحرمني من رفقتك ، وتتركني وحيداً في المدرسة .

ـ هكذا شاءت ظروفي القاهرة .

ـ فلتصحبك السلامة ، ولا تنسى أن تكتب لي باستمرار .

ـ إني مدين لك بتعليمي مبادىء اللغة الاسبانية

ـ ذلك واجب بذله أخ من أجل أخيه .

وكانت لحظة صعبة حقاً ، أضفت عليها « بيلار » جواً من البراءة والطهر وهي تناولنا الشاي المعد من صنع يدها ، وتلك هي عادتها معي دائماً عند ما أزور أسرتها .

ـ أهكذا يحملك القطار بعيداً يا رفيقي ورفيق والدي . . هل ستعود ؟ ومتى . . ؟ هل ستذكرنا في غربتك . . ؟ أم ستنسى كل شيء . .

هناك لحظات . . بل أوقات في عمر الانسان يحس أثناءها بذكرى عزيزة تشده الى المكان الذي قضى به حقبة من الزمن ، طالت أو قصرت ، وهذا هو نفس الاحساس الذي غمرني وأنا طالب في قرية « الصخرة » فلقد انطبعت في ذهني صور زملائي بعفويتهم وطيبوبتهم، ومع أنني غادرت تطوان كلاجىء مختفي، فان حنيني الى « مدرسة لوقش » ورفقائي بها كان عارماً وشديداً .

وها أنذا الآن أتهيأ لتوديع طنجة وجبلها الكبير ، ورأس « اسبرتيل » و « السوق الداخل » وشاطئها البهيج . . وتلاميذي وصديقتي « بيلار » ووالديها .

لقد قضيت ليلتي الأخيرة في شارع « البوليفار » ، وفيه كنت أقف مبهوراً بالاضواء المتلألئة في البحر ، والتي ترسلها البواخر والسفن الراسية في الميناء .

وفي صباح اليوم التالي والقطار يحمل في جوفه مآت المسافرين ، فوجئت بالرفيقة « بيلار » وهي تقتحم حجرة العربة التي كنت أوجد فيها ، جاءت لتودعني وأكدت لي : انها تنوب عن والدها الذي اضطر للذهاب للمدرسة ، بينما والدتها ذهبت الى السوق لقضاء مآرب البيت

كانت لحظة قاسية بالنسبة إلي أنا الذي شاء حظي أن أحرم من حب آخر . وبالرغم من انني لم أفصح عن مشاعري الحقيقية تجاه « بيلار » فان خيطاً رفيعاً كان يشدنا الى بعض منذ ليلة عيد

الميـلاد ، ودوت الصفارة في المحطـة ، وتناولت يـد رفيقتي التي سرعان ما سحبتها وهي تحاول عبثاً إخفاء مشاعرها ، وأسرعت بالنزول الى الارض ، ووقفت تجـاه النافـذة ، كان كل شيء آنذاك يضيع مني . . كما لو ان مـاء رقراقاً عذباً ينفلت من بين أصابعي رغم عطشي الشديد . .

وتحرك القطار ، وتتابـع وقـع عجلاته الصاخب ، وأنا أتطلـع من خلال الزجاج الى ذكرياتي التي تركتها جاثمة حية في مدينة البوغاز . . .



وتوارت طنجة عن نظري ، وإن كانت ذكرياتي فيها ظلت نابضة بالحياة رغم مرارتها وقسوتها ، واندفع القطار . وذكرني اندفاعه السريع بقطار تطوان سبتـة البطيء السير جـداً ، والذي تدفعه قاطرة سوداء تنفث الغاز ودخان الفحم ، وعند مـا كان يصل قريباً من ناحية (الملليين) يتلكأ كما لو أنه يستعـد للوقوف ، فتجـد المسافرين ينزلون فرادى وجمـاعات ليشربوا من عين عذبة المـاء قريبة من السكة ، ثم يعودون الى العربـات التي يركبونها ليواصلوا سفرهم .

أما قطار طنجـة فاس فقد بـدا مختلفاً عن نظيره ذي القاطرة السوداء ، وفي مركز الحدود الفاصلة بين المنطقة الدولية والشمالية

توقف ، وجـاء رجـال الشرطة ليتسلموا الجوازات من الركاب ، وعند مـا ناولتهم جوازي ، كنت أشعر في قرارة نفسي بالخوف ، ومن يدري انهم قد يقبضون علي ، ويسلموني لنيابة الامور السياسية بتطوان ؟ لكن تخوفاتي سرعان ما انجلى غيمها عند ما أعادوا لي الجواز وأنا أمني نفسي بأن يكون مروري من نقطة الحدود الفاصلة بين المنطقة الشمالية والجنوبية عادياً من غير منغص

وأغمضت عيني في اعفاءة ، رغـم أن منظـر المحيط الذي تغسل أمواجه مدينة (أصيلا) كان مغريا ، ويذكرني بقرب مدينة العرائش، إن صوتا واحداً رتيبا كنت أسمعه من خلال اصطفاق عجلات القطار بسكة الحديد . آه أيتها الحياة . . إنك مثل القطار، وكلنا نركب القطار - فالي أين سنمشي ؟ ماهو مصيرنا عندما نصل الى المحطة ؟ . . كيف سأصـل إلى مدينـة فـاس التي لا أعرف عنها سوى معلومات تاريخية عن مـولاي ادريس الاصغـر الذي وضع الحجر الاساسي لبنائها في موقع جبلي أخضر تتدفق منه الحياة كعلامة لـأمكانيـة حياة جديـدة . ؟ والقرويين ماذا أعلم عنها . . ؟ كيف سأدرس بها . هل تكون نموذجا مكبراً من معهد (الصخرة) والسكن كيف ؟ والدراهم من أين تصلني عندما ينفذ الرصيد الذي احتفظ به لمواجهه مشاكل العيش ؟ من الصعب على والدي أن يزودني بالدراهم بانتظام نظراً للمشاكل البريدية ما بين المنطقتيـن، واحتـلال إسبانـي، واحتلال فرنسي؟

لكن لماذا أثير في رأسي هذه العاصفة من مشاكل .. لأترك الامور على ما هي عليه .. وغداً مدبرها حكيم .

وعلى مشارف نقطة حدود «عرباوة» وقريباً من مدينة القصر الكبير ، بدأت معالم أخـري من وطنــي المحتل تظهر للعيــان من خلال وجـوه وسحنـات السكــان . ونـزل الركـاب ليبدأوا عملية اجتياز الصراط في أجواء تتسم بالقسوة والإهانة والاحتقار، وممارسات مهينة من شرطي الحدود، وهو يتفرس حينا في وجهك وشكلك ومرة يثبت نظراته على الجواز ليتأكد من المواصفات الموجودة داخله، ومقارنتها بهيأتك .

إن شعوراً بالضعة كان يملك علـي إحساسي كمواطن محروم عليه الانتقال بحرية بين أرجاء بلده المشطر الـى ثلاثـة أجزاء ، وحاولت جاهداً صرف هذه الأفكار القائمة، لكن كيف؟ ومن وراء زجاج نافذة عربة القطار، شاهدت شرطياً ينزل بقبضته القوية على رقبة شيخ عجـوز ـ كـان يحاول اجتيـاز الصفـوف المحتشدة على باب الديوانة .

بالأمس القريب سالت دماء المغاربة من أجل حرية فرنسا .. وبالأمس القريب أيضاً سقط الآلاف من أبناء الشمال من أجـل انتصار العسكر باسبانيا. فما هو الجزاء؟ أيكون الجزاء هو الصفعات التي تكال إلى المواطنين والمواطنات في نقط التفتيش بالحدود الثلاثة

كم أنت غالية على الناس ايتها الحرية، إن كل تضحية تهون من أجل أن تكون، ومن أجل أن يستمتع بها الوطن إن وردة فرانكو - تحولت إلى شوكة. ووعود الحلفاء باتت حبرا على ورق وذلك من خلال ما أحسه وأراه، فليتحدث العالم الغربي عن الحرية كيف يشاء، ولكنه لن يستطيع تزوير الحقيقة الناصعة وهو أنه يستعبد الانسان الافريقي ويستغله، ويحتكر ثرواته بدون رحمة، إن المزارع الشاسعة والاراضي الخصبة هي ملك فقط للمعمر . . والفلاحون المغاربة نساء ورجالا، أطفالا وشباباً، يعملون فيها من طلوع الشمس الى غروبها، لقاء فرنكات معدودات، حتى إذا جاء موسم الحصاد، كان كل شيء جاهزاً وبأتمه بالنسبة له من دولته الحامية، ويعود إلى موطنه للاستراحة وزيادة رصيده في المصارف والبنوك، على حساب شعب بائس يمضغ الفقر والجوع. وقد تضخمت هذه الصورة لدي عندما غادر القطار محطة سوق أربعاء الغرب. ووصل إلى محطة (سيدي قاسم). هناك شاهدت الفارق الرهيب بين المغربي والفرنسي . . بين الانسان المزهو بما عنده المحتكر لكل شيء، والانسان الشقي المريض الهزيل.

هكذا شاء القدر أن يصبح وطني محروماً من حريته، رغم مقاومة رجال الريف والجبل بالشمال والجنوب وإصرارهم على رفض الحماية المفروضة جوراً وعدواناً على شعب مغلوب على أمره، وآثروا الجهاد والكفاح على الخضوع الى إغراءات دول أوربا،

وتصنيفهم لكلمتي «الانتداب» . و «الحماية» بصيغ ماكرة ومغرية في نفس الوقت - ظاهرها التمدين ، وباطنها تكريس الاحتكار البشع .

* ✡ *

فاس تبدو ، متجهمة . . وأنت ترنو إليها من نافذة القطار ، وهو يبطىء في حركاته . كان الوقت عصراً عندما توقفت عجلاته عن الحركة والصخب . واندفع المسافرون من الباب المخصصة لخروجهم في سباق مثير فيما بينهم حول من سيركب الاول في عربة تجرها الخيول لتنقله إلى مدينة فاس الجديدة أو مدينة فاس القديمة ، والأكثرية وهم من المواطنين تتجه بهم العربات إلى باب الفتوح أو باب « ركيسة » ومن ثم يترجلون داخل الأزقات الضيقة والدروب المظلمة . التي تنتهي بهم إلى دور سكنهم المتلاصقة فيما بينها على طول الشارع أو الدرب .

إن الاستعمار وهو فى قمة جبروته ، وضع تقسيماً عنصرياً للمدن المغربية ، وفصل بين الحيين ، الإسلامي والأوربي بمسافة كبيرة ، حتى يبقى المواطن بعيداً عن إقلاق راحة وسعادة المعمر الفرنسي . وهذا ما لاحظته وأنا أجتاز شارع دار «الدبيبغ» الأنيق في طريقي إلى « أبي الجنود » ، فالحدائق الغناء تحيط بسكنى الأوربيين من كل اتجاه ، والفنادق الفخمة والسينمات والمقاهي والملاهي . كل ذلك مخصص للإنسان الفرنسي ، الذي

جاء من وراء البحار ، ليفـرض بقبضته الحديدية قوانينه الجائرة وتشريعاته الظالمـة على أمـة بأكملها ؛ وكلما كانت العربـة تقترب من الأحيـاء المغربيـة ، كانت صورة الإنسان المغربي تظهر مكبرة توحي لك بالشقاء الحقيقي لشعب محروم من حريته مداسة كرامته ، وشاهدت حمالا يتجه إلى داخل المدينـة ، وعلى ظهره أكياس ثقيلة قدرت وزنها بمائة كيلو ، بينمـا حمال آخر يسند حمولة ضخمة من فوق ظهر حمار يترنح من وطأة الثقل ، وصرفتني هـذه الصورة إلى نسيـان كل شيء يتعلق بحيـاتي الخاصة ، وحتى عند مـا توقفت العربـة ، ونادانی سائقها قائـلا : أنت في « بو جلود » لم أنتبه إلى طلب معلومـات منـه حـول الفنـدق الذي سأحل بـه في ليلتي الأولى بمدينـة فاس ، لذلك جعلت أرفع رأسي الى الحيطان والنوافذ ، وأقرأ عناوين المطاعم والفنادق ـ علني أعثر على حجرة مناسبة أستريح فيهـا من عناء السفر ـ وإلى غاية صباح اليوم التالي .

وكانت ليلة مورقة بالنسبـة لي في فنـدق « السعـادة » فالصخب شديـد ، وأبواق السيارات تصم الآذان ، والإعلان عن نقـل طالبي الاستجمـام في حمامـات مولاي يعقـوب لا يفتـر ، وحاولت إغلاق النافذة المطلـة على الساحة الكبيرة ، لكن مع ذلك فان الهدير لم ينقطع ، ومن خـلال الزجـاج كنت أتبين الوجوه التي يغدو أصحابها ويروحون في كل اتجاه ، هـا أنذا في فاس ، ولأول مرة شعرت بأني حققت جزءا من أمنية والدي

عند ما قال لي وأنا أتجه إلى قرية الصخرة : سيأتي يوم ، وتسافر إلى مدينة فاس وتدرس بجامعة القرويين ، وكنت أحتفظ ببعض المعلومات الأولية عن مدارس سكن الطلبة بفاس والتي زودني بها الفقيه المعدني بتطوان ـ ونصحني زميل سبقني إلى فاس بأن أتوجه إلى مدرسة الشراطين ، وألتقي بمراقبها ، وأتفاهم معه بمبلغ معين من المال ـ مقابل حصولي على بيت بالمدرسة . إنني اللحظة مقبل على مشاكل ينوء الجبل بحملها ، إن جوا آخر من الحياة يفرض علي ، فلا بد من الاحتياط ، والتدبير ، وجعلت أملأ ذهني بالكثير من الأسئلة وعلامات الاستفسار والاستفهام في حوار ذاتي مقلق طرد النوم عن جفني . كم سأسلم مراقب المدرسة ؟ هل سأسكن وحدي ؟ أم مع غيري . . لا أعلم . . وفي المستقبل البعيد من سيمكنني من مساعدة والدي والحال ان المنطقتين منفصلتان والقطيعة قائمة بين اسبانيا وفرنسا على الحدود . وتحويل عملة « البسيطا » بالفرنك الفرنسي من الصعوبة بمكان . إذن كيف ؟ وبدون غاية ولا قصد أخذت أقلب أوراق مفكرة أحتفظ بها في جيبي، فطالعني بيت شعر قديم:

ما بين غمضة عين وانتباهتها
يغير الله من حال إلى حال

وقرأته ، وأمعنت في تدبر مغزاه ومعناه ، وتكرر ذلك وشيئاً فشيئاً بدأت أشعر بالنعاس وسقطت المفكرة ، ونسيت

كل شيء ، ولم أعد أسمع أزير محركات السيارات وصخبها ، وأصوات الحمالين ونداءاتهم المغرية للناس بالذهاب إلى « حمة مولاي يعقوب » والتي لا تنتهي ، لا في الليل ولا في النهار .

وقبل أن ينبلج الصباح غادرت الفندق بعد أن استعدت جوازي المحجوز . . وتوجهت إلى قهوة بلدية قريبة من قوس باب « أبي الجنود » تظللها شجرة توت ضخمة ، وبجوارها كان يقوم دكان لبيع « السفنج » وقد جلس صاحبه يخبط العجين بيده داخل قصعة كبيرة خشبية ، ثم يحوله إلى كرات صغيرة لا تلبث ان تتحول في مقلات الزيت إلى دوائر منتفخة يتغير بياضها بسرعة، وتصبح في ثوان طعاماً لذيذاً يوضع على موائد فطور الصباح ، وجاء خادم المقهى ، ووضع أمامي كأساً كبيراً من الشاي وآنية تحتوي على أربع « سفنجات » وقبل أن ينصرف سألته عن مكان مدرسة الشراطين ، فأشار علي بالانحدار في شارع الطلعة الكبرى في اتجاه ضريح مولاي ادريس ، وهناك سأكون قريباً من المدرسة .

وقرع مسمعي اسم مولاي ادريس ، فتذكرت على التو وصية والدتي الحنونة التي نصحتني بزيارة ضريحه بمجرد وصولي إلى فاس ، ومن يدري أن تكون نصيحتها خيراً وسلاماً لحل مشكلة سكناي بمدرسة الشراطين والدتي الحبيبة . كم أحبك أكثر . وأنت بعيدة عني . وأنا تحت شجرة التوت الخضراء ؟ أين وجهك الذي اشتقت إلى تقبيله ؟ . أين يداك اللتين أحن إلى دفئهما

ووضعهما على صدري ، إرضي علي . . إمنحني حبك الكبير حتى يكون لي نوراً وهاجاً في طريق الشوك والظلام

واندفعت في الشارع المنحدر ، وعلى يميني وشمالي مآت الدكاكين والحوانيت الصغيرة الشبيهة بالجحور المحفورة داخل الحيطان الحمراء الداكنة ، وتوقفت لحظة بباب المدرسة العنانية ولفتت انتباهي وأنا أرفع نظري إلى حائط يقابل المدرسة من جهة الشمال مجموعة من الطاسات النحاسية ، التي لا زالت ملتصقة بالحائط رغم مضي زمن طويل عليها ، ومن شكل صناعتها بد لي أنها أشبه بنواقيس الساعات ، وآنئذ خطرت لي صورة عن حضارة شامخة في عهد أبي عنان المريني ، وأن هذه الساعة الميكانيكية التي لا تزال بعض أجزائها عالقة بالحائط من مخترعات ذلك الزمان الغابر ، وقد صنعت لمعرفة الوقت سواء بالنسبة للطلبة أو الوافدين على المسجد الرخامي لأداء الصلاة ، وجمح بي الخيال فجأة في لحظة تأمل ، إلى ساعة أخرى يحف بها إثنى عشر طاقاً ، يعلوها شكل هلال يدور عليها ، وفي داخل كل طاق صورة جارية . فاذا حلت الساعة المعنية أعلن عنها الطائر الجاثم على الساعة بواسطة صنجة يلقيها إلى طست ، فتبرز جارية في يمينها رقعة بالساعة المعينة ، لتضعها بين يدي أبي عنان ، بينما تجعل يسراها على فيها كالمبايعة وتساءلت في قرارة نفسي : وأنا أتملى وأستمتع بمنظر نافورة الماء وسط فناء من رخام : لما ذا لا أسكن بالمدرسة العنانية ، بدلا من مدرسة

الشراطين . . لكن . هل أجد بها مراقباً يتفاهم ؟ إن النصيحة الموجهة إلي من الاصدقاء الذين سبقوني إلى فاس - تقول : لا بد من التوجه إلى مدرسة الشراطين - لأنها ضخمة وتتكون من ثلاث طبقات ، وتربو بيوتها على مائتين واثنين وثلاثين بيتاً ، وفي ذلك مجال للعثور بسهولة على مكان للسكنى .

ولم أنس وصية أمي وأنا في لحظة توتر وقلق وبدلا من التوجه رأساً إلى مدرسة الشراطين عرجت على مسجد وضريح مولاي ادريس حيث وقفت لحظة صمت زائراً ومستعرضاً تاريخ بناء وتأسيس أمة هكذا شاءت إرادتك يا مولاي ادريس ، فاخترت هذه البقعة من المغرب لتكون مأوى لك ومثوى في نفس الوقت . إن الفأس الذي عثرت عليه وأنت جاد في البحث عن المكان المناسب والملائم لتخطيط وإنشاء مدينة . كان فألا حسناً للأجيال بعدك ، ولأن الفأس رمز وشعار للعمل الدؤوب والبحث الجاد المتواصل من أجل حياة زاخرة بالخير والمحبة . . حياة تشع بالنور والمعرفة على مدى العصور والأزمان .

☆ ☆ ☆

- إسمح لي سيدي أين توجد مدرسة الشراطين ؟

ونظر إلي بائع الشموع والعطور القابع داخل دكانه المجاور بضريح ومسجد مولاي ادريس :

- إنها قريباً من القرويين . .

كانت الصور تكبر أمامي ، والذكريات تتراقص في مخيلتي ، وآفاق المستقبل تبدو غير واضحة المعالم ـ وعند ما واجهتني الباب النحاسية الكبيرة للمدرسة الراشدية خامرني إحساس عارم ـ بان قطعة من تاريخ بلادي تنتصب كعملاق أمامي ، ووقفت مشدوهاً أحملق بنظرات بلهاء على وجوه الطلبة وهم يغادرون المدرسة ، وبين أيديهم لبد حمراء وكراريس صفراء من الباب المواجهة لجامعة القرويين . كانت سحناتهم غريبة ، وملامحهم منقبضة ، وربما يرجع ذلك إلى أثر الغربة في نفوسهم ، ورمقتني عينا شخص ، كانتا ترصدان كل شيء من مدخل حجرة صغيرة . وقد وقف إلى جوار منضدة ، فمن يكون ؟ وتذكرت على التو نصيحة الصديق ، الذي أرشدني إلى الاتصال بمراقب المدرسة والتفاهم معه حول السكنى .

كان الرجل طويل القامة ، أبيض البشرة ، أزرق العينين ، وبينما كنت أدنو منه ، كان يمسحني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي بنظراته الذئبية ، وكأني قرأت أفكاره : من أين أتى هذا القادم الجديد ؟ هل سيكون سميناً كزملائه « الآفاقيين » ذوي الأريحة والكرم الحاتمي ؟ أم تراه لا يجد عشاء ليلته ؟ . . وبحركة تمثيلية معبرة عن مدى تجاوبي مع إرهاصاته وأفكاره تجاهي سلمت عليه سلام الواثق من نفسه :

ـ صباح الخير
ـ أهلا ومرحبا

ـ حللت البارحة بمدينة فاس .
ـ على الرحب والسعة .
ـ أنت من المنطقة الخليفية . . ؟
ـ نعم . . .
ـ من أية مدينة . . . ؟
ـ من العرائش .
ـ طالب علم .
ـ هل عندك أحد من المعارف والاصدقاء في فاس ؟
ـ لا . . ولذلك جئت إليك لأبحث عن سكني
ـ السكنى . . آه . . آه . . مشكل كبير . . .
ـ بعض الأصدقاء نصحوني بالاتصال بك . . .
ـ وما ذا قالوا لك عني . . ؟
ـ قالوا إنك انسان طيب تقدر ظروف الطلبة «الآفاقيين» الوافدين من منطقة الحماية الإسبانية
ـ وهل قالوا عني أشياء أخرى ؟
ـ قالوا إنك شخص جدير بمحبتهم وتفهم مقصودهم .
ـ شكراً . . شكراً . . قل لي . . ما اسمك . . ؟
ـ حميد المشيشي
ـ آه . أنت من قبيلة سيدي عبـد السلام بن مشيش . .
ـ نعم من جبل العلم وارتحلت أسرتي إلى العرائش منذ خمسين عاماً .

ـ اللهم انفعنا ببركة الشرفاء .

ـ آمين .

ثـم رأيت أصـابعـه المعـروقـة تمتـد في تثـاقـل إلى درج المنضدة ، وأخرج نظارة قديمة ، وثبتها في عينـه بعـد أن استقر طرفاها على أذنه ، وجعل يقلب أوراقاً كانت موضوعة أمامه ، وبين لحظة وأخرى كنت أشاهد عينيه تجحظان لحركة الطلبة . ويصيخ السمع بأذنيه الكبيرتين إلى الأصوات التي تأتي من الطوابق الثلاثـة للمدرسة ، وبحركة غريبـة أخفى رأسـه علي وهمس في أذني :

ـ ثلاثة آلاف فرنك . .

ومن غير استفسار أو تساؤل من جانبي أجبتـه متحمساً :

ـ موجودة . . وها هي ذي . .

وأخرجت من جيبي ثلاثة ورقات كبيرات . . وتناولها مني ، وهو يتعمد الجد ، وضبط الأمور . . وغمغـم . . والفرحة تتملكه :

ـ « اهلا » يحرمنا ربي من زيارة مولانا عبد السلام ، جدي رحمه الله زار ذلك الولي في عهد السلطان الحسن الاول .

وتلفت بحذر يمنة وشمالا ، وانحنى على ورقة يكتب :

الطالب حميد المشيشي ـ من المنطقة الخليفيـة بمدينـة العرائش ـ رقم حجرة سكناه ، بمدرسة الشراطين ـ رقـم 67 ـ

وسلمني الورقة ، وهب واقفاً ، وخرج من مكتبه ليدلني على مكان السكنى بالمدرسة، وسرت الى جانبه وأنا أنوء بحمل حقيبتي الثقيلة - وصعدنا درج الطبقة الأولى الى الثانية ، ومنها إلى الثالثة ، ورأيته يختفي في مدخل مظلم - لا ينفذ اليه الهواء ولا الشمس ، وخبط على باب حجرة وهو يومىء إلي بأنها هي سكناي ، واستفسرته وأنفاسي تتلاحق من شدة الضيق :

- ومن داخل الحجرة . . ؟
- عبد السلام القصري ، طالب مثلك من مدينة القصر الكبير ، وستكون عشيره . . .
- عشيره . ؟
- نعم .
- كنت أفضل السكنى وحدي . .
- تسكن وحدك . . ؟ لا . . غير ممكن . احمد الله ان عثرت على السكنى . .

وهمست في أذنه بصوت خافت :

- يمكنني أن أزيدك في القهوة .

وانحنى علي وهو يفتعل الوقار :

- عشرة آلاف فرنك . . . مستعد ؟
- آه . . عشرة آلاف فرنك . كثير . كثير . لا أملك هذا العدد .

وكان المبلغ حقيقة هو ميزانيتي بأكملها ، وتوالت دقات المراقب على الباب مشفوعة بصوته الأجش

ـ إفتح « السي عبسلام » . . افتح . .

وفتح باب حجرة « 67 » وبدا وجـه طالب كث اللحيـة ، عاري الرأس ـ أسود العينين ، أسيـل الوجـه ـ وقدمني مـراقب المدرسة اليه وهو يعرفه بي :

ـ أقـدم لك حميد المشيشي من جبـل العلـم . . ومن العرائش . . أنتما قريبان إذن . . . ؟ .

وتبادلنا السلام ، ودخلت الى القبـو الذي كان مصبـاح صغير مثبت في أعلى السقف ينيره بالكهرباء ، ووضعت حقيبتي الى جانب فراش من التبن ، ومد المراقب يده المعروقة ليهنئني بالفوز الثمين ويعدني بمنحي الخبزة ، وسألت العشير :

ـ أية خبزة . ؟

ولمحت خبزة موضوعة على طاولة متسخة ، وتناولهـا بين يديه وقال :

ـ كل طالب له حقه في الحصول على خبزة عند مطلع كل صباح .

☆ ☆ ☆

كانت الحجـرة صغيـرة ذات سقف عالي تملـؤه خيـوط العناكب ، وتوجد نافذة تتصل بسطح منزل قديـم ملتصق بحائط المدرسة ، وغالباً ما أسمع هديل الحمام يأتي متناغماً وحنيناً ليملأ وحشتي ، والمصباح الكهربائي كان أشبه بقنديل زيتي ، ومـع ذلك كنت أجـد نفسي مضطراً لمراجعـة أوراقي على ذوره ، كم كنت أشتاق إلى زيارة فراشة من نوع الفراش الذي كان يحوم حول نور مصباحي في الليالي الربيعية الدافئة بقرية الصخرة ، وكان عشيري منشغلا بوضع الابريق المعدني الازرق على مجمار فحم ، وحتى تشتعل النار . كان ينفخ عليها بفمه ، فيتطاير الغبار على لحيته ، وينتشر على حاجبه الأسود الكث ، لا شك أنه يريد إكرامي . ومشاركته فطـوره ، والشاي عـادة هـو المشـروب الوطني . الذي يؤلف بين الناس في مجالسهم الخاصة والعائليـة ، ولابـد لأتعرف على العشير ـ من أن يكـون الإبريق موضوعـاً على سينيـة ـ ورائحـة النعناع المعطر تنفذ بين خياشيـم أنفينا .

وتناولت الكأس من يد زميلي الجديد بمدرسة الشراطين ، وخطر لي أن أتعرف عن طريقه إلى كل شيء يتعلق بنوعيـة الدراسة في القرويين ونظامها ، والفقهاء والعلماء والطلبة ، خاصة وأنه قد مضى على إقامته بفاس أكثر من عـام « واللي فاتك بليلة سبقك بحيلة » كما يقول المثل :

– قل لي « السي عبسلام » .. هل أنت من القصر الكبير .؟

ـ لا . . أنا من « قبيلة بني يسف » ، ولكن لي أسرة صغيرة بمدينة القصر الكبير . .

ـ متى جئت الى هنا . . ؟

ـ جئت في العام الماضي .

ـ وما ذا تدرس في القرويين . . ؟

ـ أدرس علوم الشريعة والفقه .

ـ وهل هناك من دروس أخرى . . .

ـ هناك من يدرس الأدب واللغة والتاريخ وعلم المواقيت.

ـ ولما ذا لا تدرسها . . . ؟

ـ لا أجد راحة في دراستها ، وبصراحة أقول لك : إني أعتزم العودة لبلادي بعد عامين على الأكثر لأحترف مهنة العدالة والتوثيق ، هذه هي رغبتي

ـ إذن أنت في القرويين ، لا تتلقى دروسك حسب النظام . . .

ـ لا . . . أنا أنهل فقط من علوم الفقه ما يعجبني ويرضيني ، كما أختار ما يروق لي من الفقهاء والعلماء . . أمثال عباس بناني ، وعبد العزيز بن الخياط ، والسيد جسوس ، والفقيه الغريسي ، والمحدث ابن سودة وغيرهم . هؤلاء أشياخي . .

ـ وأساتذة اللغة والأدب والتاريخ من يكونون . . . ؟

ـ منهم كثيرون مثل الأستاذ العراقي ، والأستاذ الإدريسي

والشريف العلوي وغيرهم . وعلى أية حال يمكنك مثلي أن تكتشف أشياخك . . .

وفي هذه اللحظة - فتح علينا باب الحجرة وأطل المراقب بقامته المديدة وهو يمسك بخبزة - وناولها لي وهو يرحب بي :

- هذه خبزتك - وقد أقنعتهم في إدارة الأحباس بوجوب منحها لك هذا الصباح - وإلا كان من الممكن أن تنتظر شهراً ، وناوله عشيري كأساً من الشاي ، لكنه رفض ، وعاد بسرعة ، وعند ما كانت خطواته تبتعد ، قال لي رفيقي :

- كن على بال منه . .

- كيف ؟

- إنه جاسوس خطير . .

- جاسوس . . ؟

- نعم جاسوس على الطلبة يحصي أنفاسهم . .

- ولكنه يأخذ الرشوة .

- طبعاً هذه شيمة الجواسيس . .

- وحتى أنت دفعت له . . ؟

- نعم سلمته ثلاثة آلاف فرنك . .

- إذن فالمبلغ بهذا القدر معروف .

- هو كذلك . .

تلـك صورة أخرى لا تختلف في شيء عن صورة ناظر قرية الصخرة ، فاستغـلال الشقاء الأدمي هو حالة واحدة ـ سواء من طرف مراقب مدرسة الشراطين ـ أو من طرف الناظر .

وقلت لصاحبي :

ـ الحديث النبـوي يقـول : الراشي والمـرتشي في النـار فكيف ننزلق الى هذا ؟ .

ـ وما ذا يمكن أن تعمل . . ؟

ـ الاتصال بادارة القرويين رأساً ، وعن طريقهـا يحصل أحدنا على سكنى .

وقهقه عشيري بصوت عال ، ووضع الكأس على الطاولة ورد علي بسخرية :

ـ بعد نصف عام إن شاء الله يمكنك أن تحصل على سكناك .

ـ كيف . . . ؟

ـ هي حالة واحدة . . ألكل يقبض الفلوس ، ولذلك لست نادماً على ما فعلت . .

وسمعت جلبة قائمة بقرب الحجرة ، فاستفسرت عن مصدرها وقال لي عشيري :

ـ جاري الحياني يهزل مع أولاد قبيلته .

وقبل أن يلتحق رفيقي بالقرويين لتلقي دروس الصباح ـ سألني عن الطريقة المفضلة ـ للتعاون فيما بيننا حول المصروف

اليومي ، ومسألة العيش ، وقال لي : إني ضعيف الحـال ، ووالدي فـلاح فقيـر ، ولا يرسل لي مساعدته الا ثلاث مرات في العام . وبدا لي صدقه من خلال كلامه فأجبتـه :

ـ خمسمائة فرنك لكل واحد منا . هل تكفي . . . ؟

ـ نعم تكفي . .

ـ إذن اتفقنا . . .

وعرض علي أثمـان بعض الخضر بشيء من التفصيـل . . فالطماطم مثـلا بعشرة فرنك للكيلو ، والبطاطس بخمسة عشـر فرنكا ، الجزر بخمسة فرنك ، أمـا ثمن الكيلو من لحم الغنم فلم يكن يزيد على خمسين فرنكاً

تلك كانت ميزانيتنـا الصغيرة ولا بـد من التقتير ، وشد الحبل على البطن حتى نستطيـع العيش فترة من الزمن ريثمـا تصلنا الاعانة من أسرنا

وانصرف العشيـر ، وبقيت وحـدي أحملـق في الجدران الأربعة ، وخيوط العناكب والنافذة العجيبـة التي تتسرب من خلالها همهمات وأصوات وهديل الحمام .

☆ ☆ ☆

عند ما تجد نفسك واقفاً أمـام نصب تاريخي له رهبتـه وجلاله يحدوك شعور قوي بأن التاريخ يطـل عليـك من وراء القرون الغابرة ويهم بالحديث اليك . لقد خيـل إلي وأنا أهم بالدخول من الباب الضخمة لجامع القرويين بأن مؤسسته أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني ، تدعوني إلى الاعتراف من منهـل العلم الذي لا ينضب في أقدم كلية شاهـدت النور في الجيل التاسع للميلاد ، ولكأني بالبابا « سلفستر » يدخلها مثلي ليدرس ويعرف الأعداد العربية .

كان صحن المسجد الكبير يمتد عبر مساحـة واسعـة ، والنافورات تقذف بالمـاء ، وكأنه شـلال سائل من فضة . الرخام الابيض والاسود يضفي على المكان مسحـة من الجمال الأخاذ ، وكانت الاصوات تسمع وتتعالى بين سواري المسجد وجنباته ، الشيوخ والعلمـاء ، وقد جلسوا وسط طلبتهـم ليلقنونهم المعرفة والعلـم ، في حين لفتت نظري دائرة ضخمـة يكونهـا الطلبـة « الآفاقيون ، وقد تحلقوا حول الشيخ بناني ، الجالس على كرسي ، وأصخت سمعي علي أعرف موضوع درسه ، ولاحظت أنـه يمـزج دروسه عـادة بالنكات والطرف ، وتذكرت إمـام مسجد العيون بتطوان الذي كان هو الآخر مسلياً لطلبتـه ومحبيـه ، وخاصة معطوبي الحرب الاهلية الاسبانيـة ، مرة كان يلقي درساً معقداً في المنطق . وحدث أن مرقت طائرة نفاثة من علـو منخفض فوق المسجد ، فأحدثت دوياً هائلا ، مما جعل الطلبـة يتلفتون

وينشغلون عن الاستماع الى الدرس ، وهنا توقف الفقيه لحظة وخاطب طلبته :

ـ اسمعوا جيداً ما سأقوله لكم ، ان هذه الآلة التي حلقت فوق صحن المسجد اخترعها علماء عباقرة . . والعلم الذي توصلوا به الى صنعها . . هو العلم الحقيقي . . أما أنا وأنتم . . ولم يكمل الشيخ كلمته ، وظهر على الطلبة وجوم غريب ، قطعه شيخهم قائلا وهو يوجه كلامه الى الصارد :

ـ أصرد الدرس . . .

واقتربت من حلقة صغيرة ، كان يتوسطها أستاذ حليق الدقن ، وعلى رأسه شال أحمر وأصفر ، وأطرقت برهة لأسمع ما يقوله ويشرحه لطلبته ، وكم ابتهجت وأنا أسمعه في درس أدبي يتناول مقارنة طريفة لأدب أبي تمام وأدب أبي الطيب المتنبي ، وسجلت اللحظة في مفكرتي رقم + « 2 » وأعني به تصنيفاً خاصاً للأساتذة والعلماء الذين أذوي الدراسة عليهم ، ثم انتقلت في حذر وهدوء عبر السواري الكثيرة وأنا أصيخ السمع جيداً الى كل الأصوات ، ولفتت انتباهي ملامح سمراء لوجه أستاذ هادىء يتحدث الى طلبته بصوت أشبه بالهمس ـ وأحنيت رأسي - ودنوت من الدائرة الصغيرة ، ومن وراء سارية سمعته في درس من تاريخ عصر بني مرين :

من المغاربة الذين كان لفكر ابن خلدون تأثير عليهم محمد بن ابن غالب بن أحمد المكناسي ، ومن مؤلفاته كتاب « نصح ملوك الإسلام » الذي يقول فيه :

العقلاء وأهل التجربة الصحيحة والفراسة الصادقة يقولون : ان الدول اذا اهتمت بالطرف والذخائر وقصرت هممها على الحلي والحلل وثياب الديباج المذهبة وستور الحرير ، والفرش الهائلة والمباني المشيدة ، دل ذلك على تحلل تركيبها ، واضمحلال ضخامتها ، وفناء رونقها وحسنها، ونقصان كمالها واذا صحب دولة الاقتصاد في الانفاق ، والتقلل من المؤن ، والعدل في الرعية ، واختيار الجند وانتقاؤهم . والاستغناء فيهم بقليل نفاع ، عن كثير عظيم المؤونة ، قليل المنفعة ، ورأس الامر ، حسن العقد مع الله تعالى ، وصفاء السريرة ، وخلوص النية ، والقصد ، وكان لها من الظهور والشماخة وبعد الصيت ما لا يفي بوصفه الدواوين . . .

وسجلت في مفكرتي رقم « 3 » وأنا أعتزم دراسة التاريخ ، فلتكن دروس المنطق والفلسفة . . . ولتكن دروس الأدب والتاريخ وفي ركن آخر ، وبينما كنت أهم بالخروج من باب مقابلة للمدرسة المصباحية ، إذا بي أتوقف لحظة للاستماع إلى درس من علوم البلاغة ، وهكذا وضعت في المفكرة قائمة مختارة من الدروس والأساتذة ، على أن أنتقي دروساً أخرى في

علوم الشريعة والفقه حتى لا أغضب والدي الذي يريدني قاضياً يتصدر مجالس المحاكم . . وتكون كلمته نافذة

☆ ☆ ☆

وأعود الى حجرتي وبين يدي مفكرة عن استعمال الزمن وأوقات الدروس وأسماء الأساتذة الذين قرر أبي أن أستفيد منهم ، ومع أن أغلبية الطلبة كانوا يفضلون الدروس النظامية ، التي تفتح أمامهم أملا بالحصول على شهادة العالمية ، فإن جماعات منهم آثروا الاستفادة وأخذ المعرفة من أساتذة وعلماء أكفاء ذوي سمعة حسنة ، ومن غير أن يتقيدوا بالدروس النظامية ، وعند ما استفسرت عشيري المتحمس لهذه الطريقة من الدراسة عن هذه الفوضى قال لي :

ـ كيف تطلب مني أن أصرف سنوات طويلة في القرويين حتى أتخرج وأحصل على العالمية ، في حين أن والدي الفلاح ، بين الحين والآخر يجر الى السوق ثوراً أو بقرة ليبيعهما ويرسل لي بثمنهما لأعيش .

ولم أحاول فتح المناقشة معه حول جدوى وأهمية تلقي الدروس النظامية أو غيرها ما دمت أنا الآخر لم أكن اهتديت الى السبيل الذي سأسلكه في هذا المجال ، وقد حاولت تجربة الطريقة الأولى بأعصاب هادئة خلال اسبوع كامل ، لكن بدا

لي أن إرهاقاً بدأ يتسلل الى نفسي أثناء دروس علم الاصول وشروح الفقه المختلفة ، ومواد المنطق ، جعلتني أحس بالدوار عند الانتهاء من كل درس ، كما أن الاساتذة رغم تخصصهم كانت تعوزهم وسيلة التبليغ ، وكم من طالب شاهدته يتثاءب متأففاً ، وآخر رأيته يسرخ بنظره على الحصير ، يتابع حركة ذبابة تعبث بجناحيها ، بينما الفقيه يسرد الأقوال - ويستشهد بالحواشي - ويملأ الأدمغة بكل ما قيل وقالوا عن هذه النازلة أو تلك ، ولذلك تمهلت فترة قبل أن أقرر : ماذا سأعمل ؟ إن طالباً آفاقياً مثلي تعوزه المساعدة المنظمة من أسرته ليواصل تعليمه . واولا التجار المهربون القادمون من العرائش عبر الحدود المصطنعة الذين كان يتصل بهم والدي ويسلمهم كل ثلاثة أشهر مبلغاً من المال ، لاعيش به . لما كنت أستطيع دفع غائلة الجوع . فكيف إذن يمكنني أن أتقيد في دراستي بالوسائل والنظم الجديدة لإدارة القرويين ؟ أليس من مصلحتي أن أختار الأستاذ والدرس معاً حتى أختصر الوقت والزمن وتكاليف الحياة ، وهكذا انتهجت مضطراً الطريقة التي انتهجها رفيقي ، واقتصرت دراستي على علوم البلاغة والأدب والتاريخ والمنطق ، بالرغم من أن والدي لم يكن يعلم شيئاً من ذلك . وربما كان يحسب أن ولده منكب على دراسة علوم الفقه التي ترشحه لمنصب القضاء في مدينة العرائش ، وإن ضميرى

لأحس له يعاتبني في كل مرة يكون خيالي محلقاً كطائر يحوم حول العشب والزهر وأنا أصغي الى أستاذ الأدب وهو يصف بحيرة البحتري، أو يشرح قصيدته السينية عن ديوان كسرى التي مطلعها:

صنت نفسي عما يدنس نفسي . . .

وفي أيام العطل الأسبوعية والإجازات . أحمل زادي الذي هو عبارة عن شطيرة خبز وبداخلها قطعة جبن ، وأتوجه الى مقهى البلدية بجنان « السبيل » حيث ناعورة الماء تدور قربها برتابة تلفت النظر ، وبصوت حنين كأنه ذكرى لحضارة قديمة بائدة . وفي خلوتي الضليلة أقضي اليوم كله في مطالعة كتاب معار بالمقابل من مكتبة « السلاوي » بالطالعة الصغرى ، على أن أعيده في اليوم التالي ، إن شعوراً لذيذاً بالحياة الجديدة التي أعيشها بفاس يسيطر علي ويملأ إحساسي . وصور أمي وأبي وأحبائي وأصدقائي تتعاقب أمامي وكأنها شريط سينمائي ينسيني القراءة ، حتى إذا ما انحنيت على صفحة مؤنسي الوحيد ورفيقي « الكتاب » جعلت أتصور عالم الشعراء والروائيين وأساطين الحكمة واللغة ، وأغوص معهم في كل فكرة .

وعند ما أعود إلى « مدرسة الشراطين » أحس بالانقباض وأنا أدخل الى القبو المظلم ذي النافذة الموحشة والمصباح الخافت ، وأستلقي على فراشي الخشن ، وتمتد عيناي الى السقف العالي ، والخيوط العنكبوتية السوداء ، حتى إذا ما أقبل رفيقي

الملتحي ورقد على متكئه جعلت أسأله عن لغز النافذة ، سمعت منه يوماً جواباً غامضاً لم يقنعني قال لي : إن النافذة تتصل بسطح منزل مهجور ، وقال مرة : إن عجوزاً حمقاء أصيبت بانهيار عصبي حاد توجد محبوسة في غرفة على السطح ، مخصصة للأثاث القديم ، وأحياناً يطلق سراحها فتقوم كجنية بجولة فوق السطوح المحيطة ، ولا تلبث أن تظل من النافذة لتهدد وتتوعد

واتسعت حدقتا عيني من شـدة العجب ، وقلت لصاحبي :

ـ بالله عليك كيف سمحت لنفسك بالسكن ، في هـذه الحجرة وهي على هذه الحالة التي تصف .

أجابني وهو يمسك بخيط طويل متصل بباب النافذة ويغلقها :

ـ ومع ذلك فأنا وأنت أسعد حظاً من الآخرين .

ومع توالي الايام وطول المعاشرة ساورني الشك في تصرفات رفيقي ، فهو يبدو سعيداً مبتهجاً عند ما أدعه وحده في الحجرة ، وما أن أخرج حتى يقفل الباب من ورائي وكم من مرة دعوته الى جولة في « جنان السبيـل » أو في « دار دبيبـغ » لكنه كان يعتذر ، ثم يمسك بكراسة الفقه بقصد المطالعة ، ولا أدري كيف حدث لي عند ما قفلت يوماً راجعاً الى المدرسة ، بعد أن تذكرت محفظة نقودي التي نسيتها تحت « المخدة » فوق فراشي ، ودنوت من باب الحجرة ، وفي اعتقادي أن عشيري موجـود ،

وبين يديه الكراسة ، لكن كم فوجئت بالباب مقفلا من الداخل وجعلت أخبط عليه بشدة ، وأنادي عليه عله يسمعني ، إذ ربما يكون نائماً ، وسألت جاري الطالب الحيـاني . فقال لي : ان عشيري لم يغادر إطلاقاً الحجرة ، وليس بعيداً ان يكون مستسلماً لسبات عميق ، وكانت ثقبة صغيرة على الباب ، قريبة من القفل ، وأطللت من خلالها على الحجرة ، ومع أن الظلام كان داخلها دامساً فقد تبينت شيئاً مسنداً الى الحائط المتصل بالنافذة مـاذا ؟ أيكون سلمـاً خشبياً من النوع المستعمل في الدور المخصصة لتبييض وتنظيف الحيطان ؟ ولكن من أين أتى عشيري بالسلم ؟ وساورني القلق من ان يكون أحـد اللصوص قد نـزل الحجرة بقصد سرقة متاعنا وفلوسنا ، وبدون شعور ، أخذت أضرب الباب بيدي في حالة عصبية وأنادي

« السي عبسلام » . . « السي عبسلام » . .

وذهبت صيحاتي سدى . . وانصرفت خارجـاً من المدرسة في اتجاه سوق « باب السلسلة » علني أجـد عشيري واقفاً الى جوار حانوت صديقه الفاسي الذي تربطه به علاقة حسنة ، لكنني لم أعثر عليه ، وبعد نصف ساعـة تقريباً عـدت مـرة أخرى الى المدرسة ، وصعدت بسرعة متناهية على درج الطبقة الأولى والثانية وغايتي ان أعرف سر السلم ، وكم أخرستني المفاجأة وأنا أدفع باب الحجرة ، وأرى عشيري مستلقياً والكراسة بين يديه ، وعطر هفيف يتسرب من قميصه ، وسألته وأنا في حالة من الاندهاش :

ـ من صاحب السلم . . . ؟

ـ أي سلم تعني . . . ؟

ـ هنا على هذا الحائط كان السلم

وأرسل العشير قهقهة عريضة، ووضع كراسته، وقام كعادته إلى « المجمار »، وجعل ينفخ في رماده ليشعل النار .

ـ آه السي حميد . . يظهر أنك لم تشرب الشاي هذا النهار . . .

ـ قلت لـك السي « عبسلام » إني رأيت بعيني هاتين سلماً خشبياً .

ـ وكيف رأيته والباب مغلق ؟

ـ رأيته من الثقب .

وأطلق قهقهات مرة أخرى وهو منشغل باعداد إبريق الشاي .

ـ لا شيء السي حميد . كن مطمئناً . . ومحفظة نقودك لا زالت تحت المخدة .

من خصائص مدينة فاس المتميزة هـذه المساجد الكثيرة والزوايا المنتشرة في أحيائها وبين دروبها الضيقة وقد انتهى بي المطاف والتجوال مساء يوم إلى زاويـة الصقليين . حيث أديت بها صلاة المغرب ـ وبعد الصلاة جلست مستنداً الى سارية وقرأت « حزب » القرآن مع الجماعة ، ويظهر أن صوتي كان مرتفعاً، مصحوباً بلكنة جبلية الشيء الـذي لفت نظر شيخ وقور يجلس قريباً فجعل يتفحصني من خلال زجاج نظارته ـ في حين كانت

أصابعه تضغط على حبات السبحة المرجانية ، وما أن انتهت الجماعة من قراءة الحزب حتى رأيت الشيخ يحاول القيام من مجلسه ، وبذل جهداً كبيراً في البحث عن عصاه ذات المقبض الفضي ، وهو في حالته هاته أسرعت إلى مساعدته وتمكينه من العصى ، وبدأ متضايقاً من تصرفي ازاءه ، إذ لم يكن في حاجة إلى أية مساعدة من أحد ، خاصة وأن وجهه لا يزال مشرباً بحمرة الدماء - وهي شعار القوة والشباب ، فكيف يتجرأ الناس على مساعدته بهذه الوقاحة المتناهية - ولكن مع ذلك ، وبينما كنت أهم بمغادرة الزاوية ، تناول يدي وانحنى علي هامساً :

- لا تبخل علينا بزيارتك أيها الطالب الجبلي للزاوية .

- إن شاء الله .

كانت تلك معرفتي الاولى بأسرة فاسية . . ذلك أنني في الأيام التالية أصبحت من الحريصين على قراءة «حزبي» القرآن بعد صلاة الفجر ، وبعد صلاة الغروب مقابل ألف فرنك شهرياً - تؤدى إلي من أحباس الزاوية ، والشيخ الوقور هو المقدم والمزاور في وقت واحد ، وقد استدعاني إلى بيته لأتناول طعام الغذاء معه في يوم الجمعة ، بعد صلاة الظهر ، ورافقته من الزاوية - وكان يرتدي جلباباً أبيض ملفوفاً بسلهام ناعم خفيف ، وفي الطريق لاحقني بالأسئلة :

- إذن أنت شريف علمي من جبل العلم ؟
- نعـم
- وفي هذه الحالة نحن أبناء عـم . . وأنا شريف صقلي .
- وأنا بدوري سعيد بهذا اللقاء الذي جمعني بك في بيت من بيوت الله بدون سابق معرفة ولا موعد . . .
- الحمد لله .

وسار الشيخ أمامي مزهواً بعصاه الفضية وسلهامه المهفهف، في حين كان المارة وسكان الـدرب ينحنون ليقبلوا يديه ، وتساءلت في قـرارة نفسي : كيف يسمح لهم بتقبيل يـده وهو الرجل الورع المعتكف ؟ وكنا نقترب من باب ضخمة ملأتها المسامير توسطها دقـاق أصفر ضخم من النحاس ، وكان شخص ضخم الجثة يجلس على مضربة جلدية مستديرة إلى جوار الباب ، حتى إذا لمح الشيخ قـادماً ، استوى واقفاً ، وانحنى باحترام، ثـم دفـع الباب ، وقابلنا في الداخل بهو مستطيل كبير - قادنا إلى حديقة غناء تـزهو - بزهور القرنفل والورد ، وقـد تدلت أوراق زهور الياسمين ، لتلتف في حنان حول نافورة يلاحـق ماؤها العريشة الخضراء

وقلت في نفسي وأنا الطالب الافاقي : ماذا أرى أمامي هل أنا في حلم . . كيف يوجد مثل هذا القصر في درب ضيق لا يسع اثنين من المارة ؟ . . عجيب . . وقطع علي الشيخ أفكاري

قائلا : مرحباً بالشريف المشهشي . . أهلا وسهلا . وتوجه بي الى غرفة ضخمة تقابل بابها أشجار الحديقة ، في حين كانت الطيور والبلابل تغرد وتشدو في أمان على أغصانها .

ـ ها أنت في محلك . اجلس حيث شئت . :

واختفى الشيخ من خلال باب صغيرة في أقصى الجنينة ، وغاب عن نظري ، وفي هـذه اللحظة ، وأنـا مشدوه لما حولي وخلفي ـ شاهدت فتاة جميلة عارية الرأس ، مسدلة الشعر ، وبيدها محفظة كتب تتجه إلى البـاب الصغيرة ـ ووقفت لحظة تتأملني بدهشة متناهية ، وربما تساءلت في قـرارة نفسها : من يكون هـذا الغريب ؟

وسمعتها تحيي البستاني بالفرنسية :

ـ « بونجور » .

وما لبثت أن غابت الاخرى داخل المبنى الفخم وسيطر علي هاجس . . ما هذا التناقض الذي أرى . ؟ شيخ متدين . . « مقدم » « ومزوار » . وفتاة غير محتجبة في عنفوان الشباب هل تكون بنته ؟ حفيدته ؟ ماذا ؟ كيف يسمح لها بالسفور ؟ وما هي إلا لحظات قليلة حتى أقبل الشيخ ، وجلس على متكئه المريح ، وبدأ كما لو كان يرغب في كل مـا يثير شكوكي ويجلو عني هواجسي . . .

ـ ها أنت ترى أولاد وبنات العصر . . متمردين على دراسة القرآن ـ مفضلين دراسة الفرنسية . . هل تتصور يا شريف أن حفيدتي « زهـراء » لا تعرف حرفاً واحداً في اللغة العربية . .

ـ كيف ؟

ـ حاولت جهدي اقناع أولادي الكبار بتوجيه أبنائهم وبناتهم لدراسة العلـم بالقرويين لكنهم يفضلون « الليسي » صحيح أن مسؤولية تعليم أحفادي تقع على عاتقي ، ولكن ألا تعلم أن عمر بن الخطاب قال يوماً نصيحة لجماعة من الـآباء : ربوا أبناءكم على غير تربيتكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم ، هذا زمـان آخر يا ولدي : بناتنا يطمحن إلى تقليد الطيارة « ثريا الشاوي » ـ في امتطاء وسياقة الطائرات فوق سماء المغرب الجديد .

وقطـع علينا حوارنا حضور شخص مهيب تبدو عليه سمـة الاحترام . . كان أسود البشرة ربع القامة ـ وسلم علينا وجلس إلى جوار الشيخ الصقلي الذي التفت إلي قائلا :

ـ أقدم لك العلامة الجليل المفسر القدير السيد الغربسي . .

ـ لقد سمعت عنه وعن علمه وأنـا طالب بالمعهد الديني بتطوان

وكان غـذاء شهياً بالكسكوس . وحـديثاً لطيفاً وحكيماً يزيد في بهـاء المأدبة

☆ ☆ ☆

وعندما أركن في غرفتي بالمدرسة الراشدية لأبدأ فى مراجعة دروس اليوم التالي يلح علي شك غريب حول تصرفات عشيري، فمن جهة يتراءى لي متزناً وقوراً، ومن جهة يبـدو وقد عذبـه الطموح فهو لا يفتأ من القول بأن أقصى ما يؤمله ويريد تحقيقه أن يعين قاضياً على رأس قبيلـة بني يسف، ولما حاول معرفة ما يجول بخاطري بدت عليه الدهشة وهو يتساءل عن معنى أن يصبح المرء كاتباً يسجل على الـورق خرافات وأساطير لا أهمية لها. وبذلت جهدي في اقناعه بأن للكاتب دوراً في تسجيل وتصوير وقائع الحياة. لكنه أرسل ضحكة ساخرة وهـو يردد:

ـ أدرس الفقه يـا أخي لتكون قاضياً . وكف عن مـا يسمى بالأدب، وبدت على ملامحه في هـذه اللحظة فرحـة غير عادية وهو يعلن لي عن بعض طموحاته، وبصورة حذر أخبرني وهو يرفع رأسه إلى النافذة المغلقة، كمن يخشى أن يسمعه أحد:

ـ لتكون على بـال، ولا تقل لأحد شيئاً بأنني سأكون في ربيع هذا العام « سلطاناً » للطلبة

ورأيتـه يسوي طربوشه الأحمر على رأسـه، ويعبث بشعر لحيته الكثة، وأردف مزهواً:

ـ تصور اليوم المشهود، وأنا أمتطي صهوة جواد. ووزرائي الطلبة يحيطون بي إحاطـة السوار بالمعصم، وأنت بينهم ونحن في الطريق إلى « واد الجواهر » بضواحي فاس، ياله من موكـب

عجيب تزيده زغاريد النسوة بهاء وجمالا . وحملقت مشدوهاً من أفكار رفيقي، فأنا أعهده فقيراً ووالده الفلاح يبعث له في أوقات زمنيـة متباعدة بمبلغ زهيـد من الدراهم ، فكيف يمكنه شراء « سلطنة » الطلبة بعشرة ألف ريال ، والمنافسة عليها بين طلبـة أغنياء وسرعان مـا قطـع علي حبل أفكاري عندما قـال لي :

ـ صحيح إنني لا أملك المال الكافي لأصبح سلطاناً للطلبة ولكن صديقاً من تجار فاس قطع على نفسه عهـداً بأن يمنحني كل مـا أريده لتحقيق رغبتي .

واستفسرته :

ـ ومـا هي غايـة صاحبك من وراء كرمـه الحاتمي . . ؟
ولم يجبني ، بل اكتفى بهز رأسه وغمغم :
ـ ذلك سر ستعرفه بعد أن أبلغ مأربي .

وفي الأيام الموالية بدأت ألاحظ تردد شخص يملك مطعماً بباب «السلسلة» على عشيري ، ويظهر أنهما كانا يعدان الترتيبات ليوم المزايدة على « سلطنة الطلبة » في فناء المدرسة الراشدية .

وحتى أكون ملماً بالمعلومات التي أجهلها حول تاريخ عادة وتقليد « سلطنة الطلبة » قررت قضاء ساعات من فراغي واستراحتي بين كتب ووثائق خزانـة القرويين باحثاً ومنقباً عن أصل هذه العـادة الفريـدة

وفيما كنت سارحاً بخيالي بين الأوراق ، مرقت أمامي صور وأصداء جاءت من وراء حجب الماضي :

ـ عندما آذنت للمغيب شمس الحضارة السعدية ، بدأ يظهر في كل ناحية من نواحي المغرب المترامية الأطراف قادة وزعماء ورؤساء يستبدون بحكم هذا الاقليم أو ذاك ، معلنين انفصالهم وتمردهم على الدولة الأم ، ومن بين هؤلاء برز اليهودي ابن مشعل الذي امتد حكمه إلى مدينة فاس وضواحيها . وبجرأة متناهية فرض على السكان ضريبة ، طالبهم بمنحه عند مطلع كل عام هدية ، وهي عبارة عن حسناء عذراء رائعة الجمال ، تنتمي إلى أكبر الأسر والعائلات بالمدينة لتكون ضمن جواريه .

وتطايرت أنباء ابن مشعل وتصرفاته وجوره وظلمه من كل الأصقاع ، وضج الناس من عسفه وطغيانه ، وكان يوجد آنئذ طالب شاب يدرس في جامع القرويين ، يتقذ حماساً وغيرة ، فانبرى مع عشرات من رفاقه الشجعان للوقوف في وجه الطاغية ولم تفته الحيلة التي تمكنه من الوصول إلى مبتغاه ومرماه ، فاتفق مع أفراد الأسرة التي حل دورها . لتقديم الهدية ، وأقنعهم بأن يكون هو هذه الفتاة ، بينما يندس رفاقه بين أمتعة الشوار الضخمة المفروضة على الأسرة المنكوبة ، وهكذا تمنطق الطالب الرشيد بالخنجر ، كما تسلح رفاقه بالسيوف ، وسار الموكب متهادياً ، تتقدمه الاخبية والقبب ، في حين كان ابن مشعل من

بعيد يترقب بصبر نافـذ وصول العذراء، ولاح الركـب في الافق يمشي متهادياً ، ووقف اليهودي في انتظار ضحيـة أخرى من ضحاياه ومـا أكثرهم، وبعد أن أرسل قهقهة شياطنية أعلن في الحال عن إغـلاق أبواب القلعة ، لينفرد وحده باستقبال الهدية . وبين غمضة عين وانتباهتها تسارع من بين الاخبية الطلبة الابطال ، فهجموا على ابن مشعل وأردوه قتيلا . ثـم تقدموا إلى قائدهم وعشيرهم الرشيد . فبايعوه بتأييد من سكان فـاس وتـازة ملكاً على المغرب ، وحتى يكافيء رفاقه على تضحيتهم وشجاعتهم أمر بإنشاء سلطنة هزلية يتبوأون عرشها أسبوعا واحداً عند مطلع ربيع كل سنة . وتكون إرثاً مشاعاً بين طلبـة القرويين .

ورفعت رأسي عن الكتاب وأنا استرجع ما قرأته . ما هو وجه الحقيقة في هـذه الاسطورة التي يحكيها الراوي ؟ أتكون أحداث القصة من ابتكار خيال الكاتب ؟ لكن الراوي ينتصب مرة ثانية أمامي ـ وقد زانته لحية شهباء مهيبة . ويرتدي منصوريـة من العهد السعدي وسألني بصوت كرجع الصدى :

ـ أتعرفـه ؟

ـ من هـو ؟

ـ هو طالب من عائلة شريفة جاءت من الينبوع بالحجاز ، واستقرت بسجلماسة ، اسمه الرشيد بن الشريف بن علي ، درس بالقرويين ، وتعرف على الطلبة الـذين أقبلوا من كل مكان

للتزود بالعلـم والمعرفة في حاضرة العلـم مدينة فـاس ، ولشدة الاواصر التي كانت تربطهم به ، كان يحدثهم عن آماله في كل مرة يضمهم أثناءها مجلس يتذاكرون فيـه عن أهدافهم وغاياتهم في الحياة بعد أن يتموا دراستهم ، وذات ليلـة ممطرة وسقف حجرتهم يبدو مهترئاً من شدة البرودة . قال لهم الرشيد : أعدكم زملائي وأحبتي بأننا سوف أشيد لكم مدرسة ضخمة رائعة لسكناكم وأنظم لكم « سلطنة » في ربيع كل عام فيما لو تحققت أمالي ومطامحي

وأطـرق الراوي لحظة قبل أن يواصل حديثه .

كنت أنتظر منه مزيداً من المعلومات والفوائد، وكما لو كان يقرأ أفكاري، ويلمس تلهفي على الاستماع إلى ما كل ما هو طريف وعجيب عن عادة سلطان الطلبة إستأنف حديثه :

ـ قد تسألني عن مصدر ميزانية نزهة الطلبة ومن أين لسلطانهم بمصاريف تغطي حفلاتهم طوال أسبوع كامل ؟ الحقيقة أن الميزانية تأتي من الثمن الـذي يدفعه الطالب ، ومن الهدايا التي ينعـم بهـا الملك على الطلبة باسم سلطانهم ، ومن تبرعات السكان ، وكذا الضرائب التي يؤديها التجار بواسطة « ظهائـر ومراسيم » يوقعها سلطان الطلبـة بنفسه . . أما الذعائر فإن الذي يتكلف بجمعها واقتنائها هو المحتسب الذي يرتدي زياً غريباً لا تملك نفسك من الضحك، وأنت تحملق في ثناياه وطريقة خياطته، وتلتف بعنقه سبحة كبيرة من التين، ولا يتورع من تناول تينة بين حين وآخر ، ومع أنه يركب بغلة ، فإنه لا ينسى أن يضع

على حجره صندوقاً خشبياً ومملؤه بالدراهم التي يستلمها من كل تاجر لاحظ عليه غشاً في معاملاته ، وتزويراً في بضائعه

ثم سكت محدثي ، ورأيته يتوارى بعد أن تركني فريسة لتساؤلات كثيرة ، وأغلقت الكتاب ، وعدت عن طريق الصفارين إلى المدرسة ، وبي شوق إلى معرفة الجديد من صاحبي الحريص على شراء «سلطنة الطلبة» مهما كان الثمن . والتقيت به صدفة وإلى جانبه صديقه التاجر الفاسي فقدمه إلي :

ـ صاحبي « السي عبد المالك » .

وسلمت عليه، وسرنا ثلاثتنا إلى المدرسة، ويظهر أن عشهري كان يريد الاختلاء بصاحبه ، لذا ودعتهما واتجهت إلى مسجد مولاي إدريس ، وصوت المؤذن يعلن عن حلول صلاة المغرب .

وحل يوم المزاد العلني لسلطنة الطلبة ، واحتشد المآت من الطلبة داخل المدرسة الراشدية ، ليستمعوا إلى صوت المقدم وهو يعلن عن أسماء المتزايدين ، كان عشيري متحمساً ومتشجعاً ، وهو يلاحق بعينيه حركات الرجل وإشاراته ، وتوالت الارقام ، فرددتها الشفاه همساً ، واشتد الصراع بين طالبين أحدهما من وجدة ، والآخر من القصر الكبير كل منهما يزيد في الثمن ليضمن الفوز ، لكن إصرار عشيري على الظفر بلقب « سلطان الطلبة » جعله يضاعف الثمن ، بينما النظرات مصوبة إليه بدهشة واستغراب ، في حين كان شك غريب يساورني ، من سيؤدي

المبلغ الضخم ؟ وكان عدلان شرعيان يتتبعان المزاد العلني باهتمام. وما هي إلا لحظات حتى علا صوت المقدم وهو يعلن من فوز عبد السلام اليسفي بسلطنة الطلبة، وتعالت أصوات زملائه بكلمات التهاني، وأحاط به رفاقه. واندفعت بينهم لتقديم تهنئتي، ونحن نمني أنفسنا بنزهة ربيعية على ضفاف « واد الجواهر » بضواحي فاس

وكان يوماً مشهوداً. وأذكر أنه يوم جمعة، وسلطان الطلبة يركب فرساً مطهماً، والمظلة فوق رأسه. تتقدمه فرقة موسيقية تعزف الانغام، وبين جنبيه يميناً وشمالا فرسان يحملون السيوف، تتبعهم حاشيته وعدد ضخم من رفاقه، ومقدمي الاحياء راجلين، تليهم فرق موسيقية شعبية تقرع الطبول في صخب.

ويحترق الموكب شوارع المدينة وأزقاتها وسط حشد من السكان الذين أقبلوا زرافات ووحداناً، ليمتعوا أنظارهم بطلعة « السلطان » الذي بدا مكسواً بهالة من بهاء وهو في طريقه الى مسجد الاندلس، حيث يؤدي صلاة الجمعة.

وفي مساء اليوم التالي خرج عشيري « السلطان » في محفل بهيج وقد صعب علي الاقتراب منه والحديث معه. ذلك لأنه محاط بعشرات من الوزراء، كما أن مقدم المدرسة كان صارماً في إبعاد الناس من حوله، وكانت الموسيقى تصدح. وهتافات الاطفال تدوي : سلطان الطلبة ! سلطان الطلبة ! وينطقون كلمة «الطلبة»

بضم الطاء وشدها ، وتعالت زغاريد النسوة المحتشمات المتجمعات فوق سطوح الدور - ذات اللون الداكن القريب من الحمرة ، بينما السلطان يحيي الجموع في زهو وخيلاء . ها هو ذا عشيري يحقق مطمحه الأول وهو طالب يسكن في المدرسة الراشدية . ويسعى جاهداً لتحقيق مطمحه الثاني ، عند ما يصدر أمر تعيينه على رأس منصب القضاء في قبيلة بني يسف ، إنني أتأمل وجهه الجميل ولحيته السوداء ، وعينه الواسعتين ، وقد حلق به الخيال فوق سبع سماوات . كنت على مقربة منه وأركب جواداً هزيلا ، يتعثر في مشيته بين حين وآخر . ويكاد يطرحني أرضاً . وعند ما كان عشيري يستدير بجسمه كله ليرى هل ما إذا كنت قريباً أو بعيداً منه كان كمن يرمز لي : ها أنت ترى يا رفيقي حميد . . أنا الآن في ذروة مجدي في دولة الطلبة .

وترتسم على ملامحه فرحة عارمة ، ثم يرفع رأسه إلى السطوح التي كانت تطل من فوقها الكواعب الحسان ، والصبايا الفاتنات من بنات مدينة فاس .

وخطرت لي في هذه الاثناء وعشيري في أوج سعادته : فكرة عجيبة . تساءلت : ترى هل يفكر اللحظة في خيوط العناكب التي تملأ حجرتنا بالمدرسة ، والطاولة الخشبية المتسخة التي نضع عليها قطع وبقايا خبزنا اليابس . . ؟ هل يتذكر يد مقدم المدرسة المعروقة ، وهي تقذف بالخبزة من فوق كوة بباب الحجرة ، وهي منحتنا اليومية والشهرية والسنوية في وقت

واحد ، وبهـا نعيش ولا شيء آخر ؟ لكن لماذا هـذه الأفكار السوداء ؟ إن عشيري لا يهمه الآن سوى قضاء نزهته الأسبوعيـة التي سيشرب فيها الكأس حتى الثمالة

ودوت الآلات النحاسية، وتعالت الزغاريد وهتافات الصبيان، فصرفت عني أفكاري ، في حين كان جـوادي يوشك أن يسقط ، عند مـا تعثرت قدمه اليمنى بحجرة قـرب بـاب « أبي الجنود » .

وفوق سهول خضراء يشقها « واد الجواهر » انتصبت خيمة مخزنية كبيرة خاصة بسلطان الطلبـة وحاشيته ، وانتشرت هنا وهنـاك عشرات الخيام الأخرى . وكان اليـوم ربيعياً مشمساً ، وأشجار التوت مثقلة بثمارها البيضاء اللذيذة .

وتوسط عشيري القصرى صدر الخيمـة ، واستند إلى أرائك ووسائد صوفية ، وجعـل وزراؤه يهمسون في أذنه بين حين وآخر ، كأنهم يستطلعون رأيه حول مهرجان الطلبة واقتربت بدوري منـه ، وسألته عن حقيقـة مشاعره ، لكنه تشاغل عني باستقبال وفد من الطلبـة الفاسيين الذين جاءوا لتقديم التهنئـة له ، وكان يجلس إلى جواري أستاذ قديم في جامعة القرويين، تربطه بالطلبة الآفاقيين صلة المودة . سألته عن ماذا يحدث عادة في مثل هذه المناسبة. وكيف يقضي سلطان الطلبة أسبوعاً بين زملائـه ؟ أجابنـي :

في أيامنا جرت العادة أنه بعد ستة أيام من تأسيس دولة الطلبة تجري الاستعدادات لاستقبال جلالة الملك ، أو من ينيبه عنه ، فيشرفهم بزيارته ويقدم لهم منحاً وهدايا . ويتقدم سلطان الطلبة راجلا ، فيسلم على جلالته . ثم يأمر محتسبه ليلقي خطبة عصماء يشيد فيها بمزايا الزردة .

وحانت مني في هذه اللحظة التفاتة سريعة إلى عشيري الذي كان منتشياً ، وهو يصغي إلى كلمة ألقاها ممثل عن طلبة مدينة فاس ، وبعد ذلك أصدر تعليماته لتعيين طالب من مدينة آسفي في منصب « محتسب » ، وما أن تمت الاجراءات المطلوبة حتى تقدم إليه زميله «السي اليحمدي» ، فأهداه سبحة كبيرة حباتها من التين الذي اشتهرت به «بني أحمد» وكانت أياماً ضاحكة بهيجة ، شرب أثناءها طلبة القرويين كأس المرح والسرور، ولم يتردد عشيري في الانصياع إلى رغبة صاحبه السي عبد المالك بشأن إطلاق سراح ابن اخته في سجن «عين قادوس» فتحدث في الموضوع رأساً مع باشا المدينة الذي جاء للسلام عليه وآنئذ عرفت السر الذي أخفاه عني عشيري حول علاقته الوثيقة بصاحبه التاجر الذي كان يشجعه يوم المزايدة لشراء « سلطنة الطلبة» بالمدرسة الراشدية .

وحلت الجمعة الموالية، ومن التقاليد المعمول بها أن سلطان الطلبة ينتقل إلى مسجد «أبي الجنود» لأداء الصلاة ، وكان

مشهداً آخر أضفى على المهرجان حلة الوقار والابتهاج ، وما أن عاد الموكب إلى «واد الجواهر» حتى أخذ الطلبة يتهامسون فيما بينهم عن اللحظات والساعات القليلة التي بقيت في عمر دولتهم ، ورأيت كثيرين من أصدقاء وزملاء السلطان ينفضون من حوله واحداً ، واحداً ، وكان عشيري هو الآخر يتهيأ لمغادرة الخيمة ، لكن متى يتم ذلك . . ؟ .

وعلى ضفاف الواد قضيت ليلة قمرية ، كانت أصوات الموسيقى الشعبية المتسللة من مآت الخيام المنتصبة تدل على ان أسراً وعائلات فاسية يحتفلون فى جذل بموسم الطلبة الربيعي. وعندما عدت إلى الخيمة الضخمة التي كان يحل بها عشيري السلطان ، لم أجد له أثراً كيف ؟ ماذا حدث ؟ هل فر ؟ لماذا لم يخبرني وأنا «وزيره» ورفيقه المقرب ؟

وفي جو من الدهشة ، أقبل بعض الطلبة ، وجعلوا يقلبون الفرش والوسائد الموضوعة في الخيمة ، وكأنهم يبحثون عن شيء ضاع منهم ، ويتساءلون : أين هو ؟ إلى أين ذهب . . ؟ وقلت لهم : علام تبحثون ؟ .

وسرعان ما أقبل «المحتسب» مسرعاً ليبحث هو الآخر عن سلطانه الذي يرجع إليه الفضل في إلحاقه بوظيفة «سامية» ورأيته يلتهم آخر تينة من سبحته «الهداوية» وسط عاصفة من الضحك .

مع صباح اليوم الموالي ، قفلت عائداً إلى المدرسة الراشدية صحبة جمع من رفقائـي الساكنين بنفس المدرسـة . كان يحدونا شعور لذيذ مرح، ونحن نجـد فـي البحث عن سلطاننـا الهارب في جنح الليل . متوقعين العثور عليه بين أشجار وخمائل «جنان السبيل» . وصاح أحد الزمـلاء : ليس غريبـا أن يكون اللحظة قابعاً في جحره ، وهتف البوزيدي : من صاحبكم لم يعرف للنوم طعماً منذ توليه «السلطنة» وكنا نقترب من ضريح «مولاي ادريس» عندما ظهر لنا بجلبابه الابيض ونفس الوجه المتميز. لحية كثة ، عينان واسعتان ، وضحكة طموحة .

- السي عبد السلام.. أين أنت ..؟ لماذا سمحت فينا وهربت؟

- لم أهرب منكم . . حاشا ومعـاذ اللـه يـا أصدقـائي ووزرائي الامجاد . . أنا الـآن كما ترون ، شربت « الحريرة » وحيداً ببـاب « السلسلة » .

وانطلقت ضحكاتنا ونحن نعلق على كل ما حدث خلال مدة إقامتنا بواد الجواهر، ولاحظ السي الخمسي بـأن «السلطان» لم يكن في مستوى مسؤولياتـه عند ما عين المحتسب ، كما أن الوزراء لم يكونوا في المستوى، وتصدى السي عبد السلام للدفاع عن نفسه :

- بالعكس كان تعييني لوزرائي ومحتسبي وفـق قوانين العقل والحكمة . ولكنكم مع الاسف مرضى بالنقـد والحسـد

وقطع علينا الزميل الحياني نقاشنا قائلا :

- لي رجاء إلى سيدي «السلطان» .

وتحلقنا حوله مستفسرين :

- مطلب . كيف ؟

طلبي منه أن يكرمنا هذا الصباح بفطور شهي لا يكلفه أكثر من كيلو «السفنج» مع العسل .

وتلكأ السي عبد السلام لحظة قبل أن يجيبنا :

- لكن بشرط أن تقوموا أنتم بشراء السكر والشاي والنعناع.

وتبادلنا نظرات التعجب فيما بيننا ، وتساءل الحياني :

- بالأمس وأنت «سلطان الطلبة» واليوم لا تملك ثمن الفطور . . هذا غير معقول «دبر لراسك» نحن ضيوفك هذا الصباح والسلام .

وطأطأ رأسه ، لكنه بدا كالمرغم عليه ، وسار في اتجاه «باب السلسلة» في حين تقدمت رفقائي إلى الحجرة العنكبوتية، واستوقفني فجأة شخص يلبس بدلة أوربية داكنة اللون وسألني:

- أنت السي حميد . ؟

- نعم .

- وأنت . . ؟

- أنا أعمل سائقا مع الشريف الصقلي

- آه: السيد الصقلي . كيف أحواله . . ؟

- بخير .

- الحمد لله .

ودعوته لمرافقتي، لكنه اعتذر لي ، وأبلغني أنه جاء خصيصاً لأصحبه إلى «ايموزار» حيث يقضي السيد الصقلي نزهـة الربيع مع أفراد أسرته ، وترددت في قبول الدعوة أو رفضهـا . لكني كنت مشتاقاً حقاً إلى حديث ذلك الشيخ الطيب ، فرجوتـه أن يمهلني بعض الوقت ، وأن يكون لقائي به عند باب «ابي الجنود» ومنها نتوجه إلى «إيموزار»

في هذه الأثناء كان زملائي يتعاونون فيما بينهـم لتهييء الفطور، فيهم الذي انتفخت أوداجه وهو يتحايل على إشعال جمرة فحم ، ومنهم من ذهب إلى إحضار «براد» كبير. بينمـا تكلفت بإحضار الطاولة وتنظيفها . ولم يلبث أن حضر السي عبد السلام، وبيده سبحة مصنوعة من الدوم حباتها مـن « السفنج » الطـازج السخون . وآنية زجاجية مليئة بعسل نحل من قبيلة «الحيـاينا»، ودوت قهقهاتنا الساخرة ونحن نعلق على تصرف عشيرنـا الذي بدا منظره عجيباً وهو يقتطع «إسفنجة» من العقد ، ويتلهمها دفعة واحدة ، كما لو كان يتذكر تصرف محتسبه عندما كان يتناول التين من سبحته المحيطة بعنقه وسط حشد ضخـم مـن رجـال دولته التي لم تدم أكثر من أسبوع .

ومدت طاولة الفطور، وصفت فوقها كؤوس الشاي في حين أخذ رفيقنا الخمسي يحملق بنظرات زائغة إلى السقف والى النافذة ويوجه سؤالا إلى السي عبد السلام :

- قل السي عبد السلام . ماذا يوجد وراء تلك النافذة..؟

لم يجبه عشيري الذي كان إيقاع أضراسه وأسنانه يسمع وهو يغمس «إسفنجة» في العسل ، بينما ظهر عنكبوت كبير في سقف الحجرة يمد خيوطاً جديدة ، ويقوم بألعاب بهلوانية ما بين طرف النافذة والسقف .

☆ ☆ ☆

«إيموزار» مصطاف رائع تكسوه الخضرة الدائمة ، ويتدفق الماء القراح من ينابيعه ، فيجري كشلالات من فضة بين أشجار البساتين التي تعانقت أغصانها وتشابكت كما لو أنها شعور العذارى المسدلة . «وعين الشفاء» التي يلجأ إليها في عز القيظ الهاربون من مدينة فاس طلباً للاستجمام والاستمتاع بالنسائم المنعشة . يكون من الصعب عليك أن تنال منها شربة ماء باردة إذا لم تنتظر فترة من الوقت في انتظار دورك .

هكذا وجدت نفسي في منتزه آخر مع عائلة السيد الصقلي وسط غرسة كبيرة يتوسطها بيت فخم ، وبالرغم من الرعاية الخاصة التي لقيتها من الأسرة الفاسية إلا أنني كنت أحس

بحمرة الخجل تلسعني ، وأنا أجلس حول المائدة ، أو أتحلق حول الموقد المشتعل قريباً من زهراء التـي كانت تمدحنـي بنظرات غريبة لا أدري ما وراءها ؟

أأكون في نظرها نموذجاً للتخلف الفكري الـذي يجسمه طالب القرويين بالنسبة إلـى طالب « الليسي » . إنهـا تتحدث بالفرنسية بطلاقة ، وتستمع إلى الموسيقى الفرنسية وتصغـى إلى الاغاني العاطفية لـ «إيديت بيـاف» وبينمـا كنت أشارك جدهـا في النقاش حول مسائـل الفقـه وعلـم الحديث ، كانت تتعمـد مقـاطعتنا بتصرفاتها الرعناء ، وربما لا تزال تحسب نفسها تلـك الطفلة المدللة لدى عائلتها ، وعلى رأسها جدها الأشيب ، كنت في انتظار الفرصة المواتية لفتح حوار جاد معها، لكن متى يتحقق ذلك ؟ إن عيوناً تلاحق كـل حركـة مـن حركاتهـا ، وتترصد كل خطوة من خطواتها سواء وهي تركض في المزرعة. أو هي جالسة إلى المدفأة في المساء وبيدها مجلـة أو كتاب . لمـاذا تنظر إلي وفي عينيها سخرية قـاسية ؟ أيكون مـرد ذلـك إلى أنها تعتبرني إنسانا يفكر بطريقة قديمة . هذا ما خمنته وانا أراها تتصفح اوراق كتاب للفيلسوف «ديكارت» وتسترق بين الحين والآخر نظرة سريعة إلى هيأتي وشكلي ، مما سبب لي بعض الضيـق لكن مضيفـي الـأشيب سرعـان مـا قطع علـي هواجسي تجـاه حفيدته ، فاستدعاني إلـى نزهة مع أسرتـه وليوم كامل في «عين الشفاء» قلت مع نفسي: هذه فرصتي

الـآن مع طالبة «الليسي» العنيدة لأردها إلى الصـواب وأعرفهـا بالقيمة العلمية للفارابـي وابـن الهيثـم - وجابـر ابن حيـان - والخوارزمي - وابن سيناء .



تطيـر فراشهـا بيضـا وحمـراً كريـح طيـرت أوراق ورد

ذلك مشهد آخر نعمت به وأنا تحت جدائل شجـرة لاصقة بالينبوع الذي يلتمس منه الناس الشفاء من أسقامهـم . كانت الفراشات تحوم وتطير حول الزهور التي تفتحت براعمها ، وقـد جاءت لتبحث عن الجمال الذي تجسمه زهرة السوسن تذكرت فراشتي في قرية «الصخرة» عند ما كانت تزورني في الليالي الربيعية من خلال نافذة حجرتي المطلة على الغابة ، لتنعم بنـور المصباح ، الذي أهتدي بشعاعه الدافىء على الافكار المثبتـة في كتاب «المدينة الفاضلة» للفارابي ، وأقارن نفسي كـطالب بتلك الفراشة ، فأنا بدوري أبحث عن الجمال والنور معاً إن أخطاراً تحدق بها سواء وهي تحط أرجلها الصغيرة الرقيقة علـى غصن أو عشب، أو عند ما تتحلق حول ذبالة المصباح ، فالجمال والنور أسمى ما تنشده ، لكن الاقتراب منهما أو الالتصاق بهما لا يخلوان من خطر. هذه زهراء أسمعها تشدوا وتغنـي وتتبـادل الضحكات الصافية مع أبناء عماتها ، في حين جلس جدها الوقور ينظر إليها

في وله وإعجاب بخفتها . حدثتني نفسي بالدنو قريباً من مجلسها لأنعم عن قرب بلفتات حركاتها وإشاراتها، لكني أذا الفراشة . . أنا طالب القرويين ما لي ولهذا الطموح الاهوج؟ بالأمس تلاشى حبي لكنزة كضباب ، وتجمدت عاطفتي وهي في عنفوانها مع رفيقتي « بيلار » فلماذا اقترب للمرة الثالثة من الوهج . . ؟ لا . . لا

مرة وأنا إلى جوار «بيلار» بشاطىء الرميلات على سفح جبل الكبير بطنجة قالت لي وهي ترنو بنظرات صامتة إلى القمر؟

- آه يا حميد . . . كم أحب نور القمر . . ؟

- وقلت :

- ومن فينا الذي لايحب نوره . . ؟

وأطرقت لحظة ، ثم قالت :

- لكني أحب فيه بنوع خاص الألم الذي يرسمه شعاعه الهادىء في الليل البهيم .

- كيف . ؟

وأجابت :

- أحيانا تتجاوب نفسي مع الآلم رغم حبي للمرح ، وربما يرجع شعوري هذا إلى ما تعرض له والدي وأسرتي بغرناطة من قمع وتشريد عند ما هجم أنصار «الكاوديو» ، على مدينتنا الجميلة وقتلوا عندليبها الصداح «غارسيا لوركا» - نعم في بعض

أوقاني يا حميد أحب الألم لانه النغمة الصادقة النابعة من أعماق النفس الانسانية، إن الانسان مهما فرح ومهما سعد لابد أن يعرف الألم في حياته يوماً ما ، فالفرح والألم حليفان متلازمان ، شأنهما في ذلك شأن الحياة والموت يرضعان من ثدي واحد .

وكما لو كنت أحلم سمعتها تناديني ، وتخيلتها «بيلار» أو كنزة، لكنها هذه المرة كانت زهراء وحدجتني بنظرات ذكية قبل أن تنحني على النبع المتفجر لتشرب، ثم خاطبتني كالمعاتبة :

ما لي أراك محباً للانزواء بعيداً ؟ أليس جدي يعتبرك من أفراد الأسرة . . ؟ أم يكون طلبة القرويين مفضلين العزلة . . ؟

وواتتني الفرصة أخيراً لأتحدث مع زهراء ، وأرد على سؤالها الساخر :

- لا يا زهراء . لست منزوياً كما تعتقدين - كيف أعتزل وأنا وسط هذا المنتزه الحالم ؟ إنما فقط أبحث عن أفكار وردية كهذا الفراش الطائر حولنا اللحظة .

- لكن قل لي يا حميد . . لماذا تبدو أفكاركم متحجرة نوعاً ما . . ؟

- كيف ؟

- أنتم طلبة القرويين وأساتذتكم لا تسايرون العصر لماذا ؟

- بالعكس . . نحن نساير وقتنا فيما نتعلمه ، وفي الوقت نفسه نحافظ على التراث .

- تراث . . ؟ أي تراث تعني . . . ؟

- ثقافتنا العربية . . تاريخنا . . رجالات حضارتنا .

- إذن كيف تسرب التأخر إلى أفكاركم . . ؟

- أفكارنا وأفكارك أيضا يا طالبة «الليسي» نفذ إليها الضعف من طريقة تصرفنا وتعاملنا مع تلك الحضارة التي أرسد قواعدها ابن الهيثم وابن سيناء والغزالي وغيرهم .

ومطت شفتيها، وبلا مبالاة استطردت :

- لكن لما هذا الاستمرار في ترديد الألفاظ والجمل الببغاوية . . ؟

- مثلا . ؟

- عندما أجد نفسي في صحن جامع القرويين أسمع اللغط الدائر في حلقاتكم الدراسية ولا أفهم ما يروج فيها ، ومع ذلك تصر بأن هذا هو التراث .

- طبعاً لن تفهمي جملة واحدة مما تسمعين لأن ثقافتك فرنسية ولا تمت بصلة إلى الثقافة العربية التي حفظتها جامعة القرويين أجيالا . وحتى الوطنية المغربية انطلقت هي الاخرى من بين جدران القرويين - أليس هذا يا زهراء دليل على أن التراث والاصالة من أسس حضارتنا . . ؟

ولم تجبني حفيدة صديقي السيد الصقلي بالرغم من أنها كانت تصوب نحوي نظرة متوهجة عاتبة ، وشاهدتها تسرع للحاق

بابن عمتها فؤاد الذي كان يلعب الورق مع مجموعة من رفقائه الذين لم يفترو الحظة من اللغط بالفرنسية . في حين التحفت أنا الآخر بمضيفي الذي كان مشغولا بقراءة . «الورد» .

فاس .. والكل في فاس

كلمة كثيراً ما كان يرددها شيخي في قرية الصخرة فهو قد قضى ثلاث سنوات في طلب العلم بالقرويين وسكن في مدرسة العطارين لم أفهم ماذا كان يعنيه ؟

هل حقيقة أن كل شيء موجود في هذه المدينة العتيقة؟

كيف .. ؟

إن «مولاي ادريس» عند ما وضع الحجر الاساسي لبنائها كان ينظر برأيه الحصيف إلى عمرانها وازدهارها يوما ما ، فتكون محجاً للطلاب والتجار معاً ومع أنها تختلف في كثير من العادات والتقاليد عن مدينة تطوان ، فانها تنفرد بطابع اجتماعي خاص لمسته في الفنون الشعبية المتمثلة في تقاليد الزواج وحفلات العقيقة ، وحدثني الشيخ الطاهري الذي تعرفت به في دكان ولده سعيد الكائن قريباً من المدرسة المصباحية بأن كثيراً من العادات التي عاصرها وهو في شرخ الشباب بدأت تضمحل وتزول ، وعند ما سألته عن بعض هذه التقاليد أجابني :

تصور يا حميد أنه من الاشياء الطريفة التي عاشتها تلك الدكاكين التي كان يجلس فيها أشخاص معروفون بتقصي أحوال الزنقة أو الحي في منطقتهم، ويعرفون العائلات كبيرها وصغيرها، ولذلك يقصدهم الناس للاستشارة فيما يعتزمون عليه من خطبة، هم وحدهم يعرفون من سيصلح لهذا الزوج من النساء ومن سيصلح لهذه الزوجة من الرجال ولا أكتمك يا حميد من أنه لولا استشارتي لهم في موضوع زواجي لما كنت أظفر بزوجة صالحة، وأنت ترى أنه لا يزال معروفاً في مدينتنا «حي الأبارين» وقد تسمى باسم أولائك الذين حدثتك عنهم. تصور ماذا كان يتحمله الرجل من جهد وبحث ليحصل على شريكة حياته، في حين تجد الفتاة العصرية، يراها الرجل أو يتعرف عليها صدفة في الحي أو في باب المدرسة، ويسرع إلى أبيها لخطبتها منه... تصور أنني عند ما زوجت بنتي « للاهنية » قلت لها متوعداً : لن أسمح لك يا بنيتي مطلقاً بالتبرج خارج دار زوجك.. آه على زماننا يا حميد.. مرة واحدة بعد حفلة العرس جاءتني في «الليلة المسروقة» لأستطلع رأيها وأتقصى أحوالها وطريقة معاشرتها للزوج الذي رضيت به زوجاً. هذا كل ما في الأمر أما اليوم آه ولم يتم العجوز حديثه، ذاك أنه انفلت إلى أقرب مسجد لأداء صلاة العشاء.

ومن التقاليد ما سمعته عن المحبسين المحسنين بالمدينة فيهم من اشترط بأن يكون حبسه مخصصاً لشراء أواني خزفية

تعوض الأواني التي تعرضت للكسر والضياع من طرف خدم مثلا ، ويخشون العقوبة إذا هم عادوا بدونها إلى البيوت التي يشتغلون بها . وبواسطة هذا الحبس تسلم لهم أواني جديدة ، ولو كانت من نوع « الطاووس » الصيني .

وسمعت عن محبسين خصصوا حبسهم لشراء الحبوب لتتناولها الطيور فوق الصوامع والسطوح ، ومحبسين آخرين منحوا أموالهم إلى ذوي الأصوات الرخيمة الذين يهللون خلال الليل ليؤنسوا المرضى .

ومن المظاهر الأخرى التي استأثرت باهتمامي ما لاحظته في كثير من الذين عرفتهم خلال مدة إقامتي في فاس من حب لآل بيت النبي ، وفي شهر المولد النبوي تتسابق البيوتات الفاسية في إكرام الشرفاء . وخاصة الطلبة القادمون من جبل العلم ، ولا أدري لماذا كنت أحظى باهتمام خاص في هذا التكريم، ألأن إسمي العائلي «المشيشي» هو السبب؟ فهم يسمعون كثيراً عن الشيخ « سيدي عبد السلام ابن مشيش » ويحفظون « الصلاة المشيشية » وينوون زيارة ضريحه ، لولا الاجراءات المشددة من لدن السلطات الفرنسية التي تحرمهم من الاتصال بمنطقة الشمال ، وأصف لهم مهرجان « النسخة » الذي يقام فوق جبل العلم في الخامس عشر من شعبان . فتترقرق عيونهم ، إن حباً طبيعياً وعميقاً في قلوبهم إلى الفاتح الأكبر مولاي ادريس

دفين زرهون ، وإلى ولـده ادريس الأصغـر الذي تلتف حوله مشاعرهم وآمالهم . لقد سمعت عن السيد المدني ذلك العابد الزاهد الذي قال عنه محبوه وأصدقاؤه : إن أهم هواياته المفضلة خلال أوقات تفرغه لشؤون الحياة والدنيا ، أنـه يختـار بذوقه الرفيع وبنفسه عند ما تزهر الأشجار في مطلع الربيع أجود أنواع الزهور والورود ، فيقطرهـا ، ويصنع منها مـاء الزهر ومـاء الورد المنعشين ، لا تملك نفسك وأنت ترش بهمـا وجهك وثيابك من أن تهتف من أعماقك « اللهم صل على سيدنا محمد » ، هـذا كل ما كـان يؤملـه من هوايته هاته . يكفيه أن يمنحه الله إحسانه وثوابه في كل مرة يصلي فيها المرء على سيدنا محمد وهو يمسك بالمرشـة ، ويستمتع بعطر الزهر .

إن هناك بعض الخصائص والمزايا التي تربط ما بين أهـل تطوان وأهل فاس ، وكلا المدينتين عشت فيهمـا ردحاً من الزمن . تعرفت إلى عائلات وأسر كثيرة فيهمـا ، إمـا بواسطة صداقة ربطتني بطالب تطواني أو فاسي في المعهد الديني وفي جامعة القرويين أو عن طريق مـا حدث لي فجأة في زاويـة الصقليين عند ما التقيت بالشيخ الصقلي .

وعن طـريق هـذا الاتصال تأكد لي أن منبـع حضارة المدينتين واحد. فهما معاً يمتان بأوثق الصلات إلى الأندلس . وحي الأندلس في مدينة فاس شاهد على هذه الحقيقة ، كما أن

الطرب الأندلسي وأصوله وموازينه ونوباته الاحدى عشر ، يظل السمة البارزة لموسيقى الفردوس المفقود ، وقد بقيت محفوظة بالسماع في صدور الفنانين والمنشدين أباً عن جد في تطوان وفاس ، حتى ألوان الطعام وأنواع الحلويات تكاد المدينتان تلتقي في طريقة وكيفية إعدادها ، بالرغم من أن تطوان قد تأثرت إلى حد ما ببعض التقاليد الجزائرية ، ومنها صناعة أصناف من المأكولات ، وأشكال من الحلوى انتقلت إلى الجزائر عن طريق الأتراك العثمانيين . وخلال الاحتلال الفرنسي للجزائر هاجرت أسر كثيرة إلى تطوان ، فنقلت معها أحسن العادات التي كان موطنها الأصلي في الشام



عند ما عدت من « إيموزار » ، وفيما كنت أدخل من الباب الكبيرة لمدرسة « الشراطين » فاجأني المراقب وهو يناولني ظرفاً :

ـ رسالة تخصك من العرائش ، ومنذ اليوم ستسكن وحدك في الحجرة ريثما يلتحق بك مؤنس آخر .

ولم يطاوعني لساني على استفساره عن سبب سكناي وحيداً بلا رفيق . ذلك لأنه أردف هامساً :

ـ عشيرك « السلطان » صار من أصهارنا . . .

– كيف . . ؟

– تزوج أرملة تقيم أسرتها بمنزل قديم مجاور للمدرسة .

وبعد أن غمزني بطرف إحدى عينيه المحمرتين المنتفختين إنحنى علي كمن يطلعني على سر :

– يظهر أن عشيرك يا حميد لم يكن يطلعك على شؤونه الخاصة وعلاقته بالنساء عن طريق نافذة الحجرة ، المتصلة بدار ليلاه . على أي حال كان ممكناً أن نقذف به في السجن ، لكن « الله يسامح » ما دام قد تزوج بصاحبته .

ولم أستطع إبداء أية ملاحظة عن ما سمعته من المراقب عن تصرف عشيري ، لذلك أحنيت رأسي وتوجهت تواً إلى حجرتي التي بدت لي وأنا أدخلها صامتة خرساء . وعلى ضوء المصباح الكهربائي المتدلي من السقف الخشبي المهترىء جلست لأقرأ رسالة والدي :

– مضى وقت طويل على وجودك بالقرويين دون أن أعرف شيئاً عن أخبارك ، ولولا صديقي الحاج الساحلي ما كنت لأطلع على أحوالك بمدينة فاس ،

أما عن حالة والدتك ، فإنها تعاني من برد أثر على صحتها وهي تدعو معك . وأنا من جهتي أنتظر اليوم الذي تعود فيه ، وقد حققت أملي ورجاء العائلة بالعمل في منصب القضاء الذي ينتظرك في العرائش . بعد أن يحال على المعاش « السي الفضيل»

وسرحت أفكاري بعيداً بين المروج والسهول التي نعمت بجمالها في الصخرة و « إيموزار » كما لو أنني حقاً تلك الفراشة الباحثة عن النور بين ثنايا زهرة . إن والدي يحسبني منكباً على دراسة علوم الشريعة والفقه ، التي ترشحني قاضياً بـدل « السي الفضيل » وما علم أنني مقبل بشغف على إرواء ظمئي بفنون اللغة والأدب ودروس البلاغة . كيف أبوح له بالحقيقة . . . ؟ كيف أصدمه وهو الذي يعلق أكبر أمله على أن يصبح ابنـه قاضياً مبرزاً يدين له سكان مدينة العرائش بالتقدير والاحترام . وحتى عشيري « السي عبد السلام » هو الآخر ابتعد كثيراً عن مطمح والده في شغل منصب قاضي بقبيلة « بني يسف » عند ما اختار الزواج من أرملة ترى كيف يستقبل والده خبر زواجه . . ؟

وأغمضت عيني علني أقطع شريط أفكاري ، ومـع ذلك تصورت نفسي فقيهاً معمماً يرتدي الجلباب الأبيض وأتصدر مجلس القضاء ، في حين يمشي والدي في شارع « اسبانيـا » والناس تتملقه ، وفيهـم من له مشكلـة مـا ، تنتظـر البحث من طرف المحكمة الشرعية ، بينما والدتي في جمع من النسوة تستمع منهن إلى كلمات الإعجاب والإطراء ، وهن يرددن

« تبارك الله على وليدك ألالا » .

إن الخيـار لم يكن لي أبـداً في السير على الطريق الذي رسمه لي والدي لدراستي ، ذلك أن هزة عنيفة تملكتني خـلال

اللحظات التي نسيت فيهـا نفسي وأنـا أعيش ولأول مـرة مـع شخصيـات روايـة « الاخوة كرامـازوف » للروائي الروسي « ديستويفسكي » أو أبطال قصة « الشيخ والبحر » للروائي الامريكي « هيمنجواي » وروايته « لمن تقرع الاجراس ؟ » التي نقلتني إلى ميادين الحرب الأهلية في اسبانيا ، وصراع «الكاوديو» مع الحمر « الروخوس » وكانت « سلوى في مهب الريـاح » لمحمود تيمور ، أول رواية قرأتها له ، تسلمتها من مكتبة السلاوي لأطالعها مقابل خمسين فرنكاً لليلة واحدة ، ولا أنسى بطلة قصة « الأم » لجوركـي ، وبطل رائعة « سيربانطيس » «ضون كيخوطي » فلماذا إذن لا أحاول السير على منوالهم وأتناول شؤون الحياة قصة ورواية ؟ إن والدي حتماً لن يعذرني فيما أصبـوا إليـه . إنني أحبه وأعزه ، فكيف لي أن أبوح له بحقيقة مشاعري وأقول له بكامل الصراحة :

إسمع أيها الوالد . إنني لن أعـود من القرويين قاضياً ، ولكن أرجع إليك ، وفي جعبتي قلم أرسم به على الورق أفكاراً ، لها لون الفراش الهائم على وجهه بين ضفتي « واد لكوس »



وبعد

ترى ماذا قد يتصوره الذين يكتب لهـم قراءة قصة « حميد المشيشي » من خواطر وأحداث جدت على مسرح الحياة السياسية

والاجتماعية في شمال البلاد وجنوبها ، فالاستعمار الفرنسي والاسباني والدولي يسعى جاهداً لقتل وطمس رغبات الشعب في الحرية والانعتاق من الأسر والعبودية ، والمقيم « جوان » يلوح بالعصى والسوط ضد كل مواطن شريف جهر بالحق ونشدان الكرامة ، في حين بدأت الأبواق في كل مكان تهتف بالدعاء والتأييد للحماية وحماتها من أصحاب المنافع والمصالح الذين استغلوا كل شيء ، فأحلوا لأنفسهم استغلال الأرض ومن عليها من الحيوانات والبشر .

ولم أفلت أنا الآخر من رشاش السلطة وغضبها ، رغم أنني كنت كماً مهملا داخل قبو أشبه بالسجن في مدرسة الشراطين ، ذلك ان الأوامر صدرت إلى مراقب المدرسة ذي الوجه المنبعج ، والانف المعقوف ليطردني ويحرمني من السكنى والخبزة بسبب إقدامي على إلقاء كلمة باسم الطلبة الآفاقيين في مهرجان وطني أقيم بمدرسة الشعب ، ضمنتها الحديث عن الحالة المزرية التي يعيشها الطالب ، كما لو أنه حشرة حقيرة . وكنت مضطراً بعد محنتي هاته إلى الالتجاء لمنزل صديقي الصقلي ، الذي رحب بي وخصص غرفة لسكناي داخل حديقة منزله ، الحديقة الغناء التي عرفت فيها أول لقاء لي مع حفيدته زهراء ، وفيها كتب لي أن أشاهد عرسها الكبير ، وزفافها بابن عمتها فؤاد ، الذي رافقها بعد العرس بأيام إلى فرنسا لمواصلة الدراسة بها . وعند ما كانت أنامل عازف الرباب تنقر على الوتر نغمة من نوبة

« رأس الذيل » في الليلة البهيجة كنت أرنو إلى المستقبل . هذه زهراء تتوارى وراء البحر . وقبلها توارت كنزة خلف ضفاف « لوكوس » بينما الرفيقة « بيلار » فوجئت بصورتها على غلاف مجلة إسبانية عثرت عليها بمحض الصدفة بمكتبة في « دار الدبيبغ » وعلى الصفحة رقم 60 تألق عنوان بارز بالأحمر والأصفر : « فتاة طنجة بيلار تنتزع الإعجاب من جمهور المسرح الوطني بمدريد » . نفس الابتسامة والوداعة ، نفس اللطف والملامح التي تميزت بها فتاة لوحة « الجوكاندا » لفنان إيطاليا « ليوناردو دافنشي » ، أجل إنها هي . . هي فراشتي الأخرى التي طارت وحلقت بعيداً ، ومن نحن أيضاً ؟ ألسنا ذلك الفراش الذي يحوم بلا كلل أو ملل ، باحثاً عن أبدع وألطف ما في دنيانا من نور وشذى . كلنا يأخذ وجهته ، وقد اخترت لنفسي طريقاً غير مفروش بالورد ذلك لأن الحرف المكتوب بصدق ، يدفع بصاحبه أحياناً إلى العيش في محنة الضياع والقهر ، بين ظهران قوم يمجدون القوة العاتية ، ولا يأبهون بالأفكار الجميلة الصريحة، هؤلاء أشبه تماماً في الصورة والشكل برجال الحرس المدني Guardia Civil بقبعاتهم الغرابية السوداء ، الذين استجابوا يوماً لأمر «فرانكو» فأطلقوا النار على كاتبي المفضل «غارسيا لوركا» فهوى كالفراشة البنفسجية التي أحبت النور بين مغاني « غرناطة » وماتت حباً في النور ، إني اللحظة ونور المصباح

يذاعب خيالي أمسك بالقلـم وأخط على الورق آخـر سطر لقصة إنسان ذات وقائع بسيطة كالحياة نفسهـا مـن غير زيادة ولا نقصان .

تمـت

عزيـزي القـارىء :

وقعـت فـي القصة بعـض الاخطاء المطبعيـة الصغيرة، فأرجو مشكوراً أن تتجاوزها وهي :

تصويبـات

صفحـة	سـطـر	خـطـأ	صـواب
4	18	تفكيرة	تفكيره
7	12	سيـل	أسيـل
7	15	المعروفـة	المعروقـة
9	2	يململ	يتململ
12	1	عينيـه	عينـه
18	1	كغربان	كقربان
15	4	صفيعي	صقيعي
16	8	الرقـابـة	الرتـابـة
20	4	بنت خالتي	بنت خالي
49	19	المحشونة	المشحونة
60	14	روحي	روحين
61	4	نفـس	نفسي
61	12	المحضبطين	المخضبتين
61	13	آلامهـا	آلامـاً
63	1	يخطـون	يخطـرن
79	5	حجـر	جمـر

صفحة	سطر	خطأ	صواب
84	14	يتغذى	يتغنى
85	2	وهممت	وهمهمت
94	3	اجراحه	إحراجه
95	7	وان	وران
110	7	إعفاءة	إغفاءة
111	12	القائمة	القاتمة
117	1	إمنحني	إمنحيني
118	8	لخظة	لحظة
118	5	أذنه	أذنيه
121	8	أحفى	أحنى
133	5	يسرخ	يسرح
134	1	له	به
144	17	رقاقه	رفاقه
145	3	شواطينية	شيطانية
146	6	بأننا	بأنني
148	12	ويحترق	ويخترق
149	7	وعينه	وعينيه
151	14	في	من
153	6	من	إن
155	7	وينلهمها	ويلتهمها
157	2	تمدحني	تحدجني
161	5	أرسد	أرسى
161	6	الهيثم	الهيشم
192	2	التحفت	التحقت
163	1	عاشتها	عشتها
170	10	نبو	قبو

هـذا الكتاب :

• • • وقبل ان يبدأ الفيلم الاخباري فى قاعات السينما بتطوان ، كانت تعرض صورة « الكاودييو » المنتصر المزهو بنياشينه وأوسمته العسكرية ووجهه المتجهم . . . كان من المحتوم والملزوم على رواد السينما أن يقفوا تأدباً واحتراماً للبطل الذي قضى على «الروخوس» .

• • •

• • • وزعم الحاج بن عيسى وهو من رواد قهوة «الدحمان» بأن هتلر حي يرزق، ويوجد بعيداً عن الانظار داخل غواصة حصينة فى عرض البحر، وسيعود من جديد ليحكم العالم.

• • •

• • • كانت بلادي ممزقة الاطراف، فهناك المنطقة الداخلية، وهنا المنطقة الخليفية، ويسمون طنجة بالمنطقة الدولية، كان وطني أشبه ببقرة تناولتها السكاكين من كل جهة ليقتطع منها أصحابها ما يشاؤون .

الثمن 15 درهم

رقم الايداع القانوني : 49 ـ 1982

مطابع الشويخ « ديسبريس » تطوان (المغرب)